الباب الأول

الفصل الأول

حياته وعصره

كان مولد الأمير شكيب أرسلان في (الشويفات) بلبنان يوم الإثنين غرة شهر رمضان سنة ١٢٨٦ هـ الموافق الخامس والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٦٩م [١] ، وهو الإبن الثاني للأمير حمود بن حسن .. الذى يرقي نسبه إلي الأمير أرسلان المتوفي سنة ١٧١ هجرية , أما والدته فهى سيدة شركسية جليلة.

وفي المرحلة الأولي من حياة الأمير تعلم مبادىء القراءة والكتابة مع أخيه (**نسيب**) علي يد معلم القرية حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين ، وحين ذهبت العائلة تصطاف في (عين عنوب) أحضر الوالد معلماً آخراً هو **أسعد فيصل** حفظهما جانباً من القرآن الكريم ، ودخل مع أخيه مدرسة الأمريكان في الشويفات فنال قسطاً من العلوم واللغة الإنجليزية . وفي سنة ١٨٧٩م كان الأمير شكيب قد بلغ العاشرة من عمره ، فدخل الشقيقان (مدرسة الحكمة) في بيروت , وهي التي أسسها (المطران يوسف الدبس) رئيس أساقفة الطائفة المارونية ، وتلقي الأمير فيها دروس العربية علي يد الشيخ عبد الله البستاني ، وفيها تعلم الفرنسية والتركية ، وظهرت تباشير شاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سنى دراسته مبرزاً مع أخيه علي أقرانهما ، فلما زار مدرسة الحكمة الإمام محمد عبده ، وكان منفياً في بيروت – إثر ثورة عرابي – قدم إليه الفتى على أنه مفخرة إخوانه ، فقال الإمام فوراً : إني أعرف إسمك وستكون من أحسن الشعراء وكانت هذه الشهادة أعلى مايطمح إليه شاب في مثل سنه لذلك الزمان [٢] . بعد (مدرسة الحكمة) دخل الشقيقان نسيب وشكيب (المدرسة السلطانية) في بيروت سنة ١٨٨٧م ، وكان شكيب قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ،وحضر مع أخيه درس مجلة الأحكام العدلية علي الإمام محمد

---

[١] ذكر شكيب نفسه تاريخ ولادته في مواقع عدة من كتبه ومنها روض الشقيق ص ١٧

[٢] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، دار المعارف ، صفحة ٦٧.

عبده ، فأحبه الفتي ولازم أستاذه الشيخ في مجالسه الخاصة ، وتوثقت عرى صداقة متينه بين الإمام وأسرة شكيب [١] .

وفي سنة ١٨٩٠ ، كان شكيب قد بلغ الحادية والعشرين من عمره والأجل قد وافي والده ، وقد عجلت دروس الإمام محمد عبده في ظهور طموح الفتي شكيب أرسلان لأن يتحمل مسؤليته وأن يصبح زعيماً من زعماء الإصلاح في العالم الاسلامي . وهكذا يسافر الأمير شكيب أرسلان إلي مصر ليجاور الشيخ محمد عبده العائد إلي الوطن بعد سنوات المنفي ، ويتعلم منه ويتصل من خلاله بزعماء الوطنية وقادة الفكر والأدب والسياسة فيعرفه سعد زغلول ، ويستكتبه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة (المؤيد) التي كانت ملتقي الأقلام الكبيرة في زمنها ، ويتصل بشيخ العروبة أحمد زكي باشا والسيد رشيد رضا صاحب (المنار) ويشارك هؤلاء علي صغر سنه – في مناقشة الهموم الإسلامية ، ويلمس عن قرب الأخطار التي تتهدد عالمه الإسلامي ، ويلم بخيوط التآمر الغربي علي الخلافة الإسلامية فيشتد شوقه للقاء جمال الدين الأفغاني لينهل من الينبوع ويستقي منه فيروي ظمأ نفسه وغليل روحه ، ويقف علي كثير مما كان يعتلج في قلبه من الأسئلة ، وبالفعل سافر إلي باريس ومنها إلي الأستانه سنة ١٨٩٢م ، عاصمة الخلافة العثمانية وهو في الثانى والعشرين من عمره فنفض أمامه جملة مشاهداته في مصر وفي الغرب ومادار في خلده عن الشرق والإسلام وموقف الإستعمار والتبشير منهما ، فأعجب به جمال الدين الأفغاني كما أعجب به محمد عبده من قبل وقال له (**أنا أهنيء أرض الاسلام التي أنبتتك**) [٢] .

دفاع الأمير عن الخلافة العثمانية

وعاد الأمير شكيب أرسلان إلي بيروت بعد أن طاف في أوربا ودار الخلافة ومصر يحمل راية الدفاع عن الخلافة العثمانية لأنها دولة الإسلام التي تحيط بها الدول الإستعمارية من كل جانب وتقتنص أطرافها ، وتتحلب أشداقها شوقاً لإبتلاع ولاياتها ، ولا تتورع في الإيقاع بينها وبين شعوبها ، فأتخذ ديدنه الدفاع عن الخلافة العثمانية بعد أن وقف علي

---

[١] روض الشقيق في الجزل الرقيق ، وهو ديوان نسيب أرسلان ، جمعه وقدم له وعلق عليه وأردف بنسب الأسرة الأرسلانية شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ط١ سنة ١٣٥٥هـ – ١٩٣٥م ،ص١٩، ٢٠

[٢] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ص ٧٠

دسائس الإستعمار ، وعرف مالم يعرفه قومه من خطط الإستيلاء علي بلاد العرب والمسلمين ، وفضل أن يقف إلي جانب بني عثمان في نضالهم ضد الغرب إلي أن تتجلي غمامتهم لئلا يتفرق الصف في الشرق الإسلامي وليكون معهم في الحرب ضد التبشير وتفرقة الصفوف .

ولذلك كان موقفه كموقف جمال الدين ومحمد عبده في نصرة العثمانيين يختلف عن موقف كثير من زعماء لبنان آنذاك [١] الذين أغرتهم دعوة الدول الغربية البراقة لإنفصال العرب عن الخلافة ، وصرخ شكيب بأعلى صوته وخطب في كل محفل وكتب في كل صحيفه بأن البديل عن الخلافة ياعرب هو الإستعمار .

وإذا عدنا إلي كتابات عصر الأمير شكيب وقبل الحرب العالمية الأولي لوجدنا أن شكيب لم يكن وحده الموالي لتركيا ، فموالاة تركيا لم تكن في حقيقة الأمر إلا تمسكاً بخليفة المسلمين الذي يلي أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعني في إفهام كثرة المعاصرين – في أقطار إسلامية كثيره كمصر والعراق وسوريا – إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين [٢] ، وهذا لايعني أن الأقاليم العربية كانت راضية عن أسلوب الحكم العثماني تماماً بل كانت تحس بما ينطوي عليه هذا الحكم من مواطن الضعف ولكن سبيلها في معالجة الضعف لم تكن الثورة أو الإنفصال بل الدعوة إلى الإصلاح وإلى المساواة في الحقوق بين العرب والترك ، إن الكثرة الغالبة من سكان العالم العربي لم تكن تفكر في الإستقلال . أما قادة العمل السياسي وأكثرهم من تلاميذ الأفغاني فكانوا يدعون إلي تقوية الدولة العثمانية عن طريق الإصلاح الإداري واللامركزية وتصحيح العقائد والإعتصام بالرابطة الإسلامية والإسترشاد بتعاليم الإسلام النقية من الشوائب ومن أشهر هؤلاء المصلحين الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ – ١٩٣٥) [٣]. فهذا الشيخ الإمام محمد عبده يلخص دعوة أستاذه الأفغاني وغايته من جهاده طوال حياته فيقول : " أما مقصده السياسي الذي وجه إليه أفكاره وأخذ علي نفسه السعي إليه مدة

---

[١] د. سامي الدهان ، مرجع سابق ، ض ٧٠

[٢] الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، د. محمد محمد حسين جـ ١ – ص ٩

[٣] نكبة الأمة العربية ، محمد الخير عبد القادر ، ص ٦٨

حياته وكل ماأصابه من البلاء أصابه في سبيله فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام علي شئونها فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفي مجده ويدخل في هذا تكيس دولة بريطانيا في الأقطار المشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية .." [١] .

وإصلاح الأمة في رأى محمد عبده " إنما يكون برجوعها إلي قواعد دينها والأخذ بأحكامه علي ماكان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الواقية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإتقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة " [٢] .

وينفي السيد رشيد رضا عن العرب تهمة العمل للإنفصال عن تركيا قبل الحرب العالمية الأولي وأثناء خلافة السلطان عبد الحميد الثاني ، ويوضح الأسباب التي دعت العرب إلي المحافظة علي وحدة الدولة العثمانية فيقول " إنما كان السبب الصحيح لسكون العرب وسكوتهم عن طلب إستقلالهم وتجديد دولة لهم هو الإسلام وأوربة . دين الإسلام وسياسة دول أوربه سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للإستقلال والحق أن الباعث الآخير لإعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصناً لبقية البلاد الإسلامية في وجه أوربة " [٣] .

لم يكن الأمير شكيب أرسلان وحده الموالي للدولة العثمانية من العرب ، بل كان يمثل رأى عقلاء العرب الذين كانوا لايجهلون مطامع الدول الأجنبية في بلادهم ، ولم يكن يخفي عنهم تصميم أوربا علي تقسيمها ، وأنه لاعهد للدول المسيحية بإزاء المسلمين مهما عاهدت..

" إلا أن الإنجليز تمكنوا قبل الحرب العامة من إستجلاب كثير من ناشئة العرب ، منهم من إستجلبوهم بالمنافع الخاصة ، ومنهم من إستجلبوه بطريقة الإقناع ، وأوهموا العرب أنهم إنما يريدون ليجددوا دولة عربية كدولة بني العباس أو دولة بني أميه مثلاً ، ويساعدوا العرب علي تجديد مجدهم القديم وعلي عمادة بلادهم التي لم يحسن الترك إدارتها ، ولا عمادتها .

---

[١] مقدمة محمد عبده ، رسالة في إبطال مذهب الدهريين ، بيروت ١٣٠٣ هـ ، ص ٩

[٢] العروة الوثقى : العدد الثالث ، باريس ٢٧ مارس ١٨٨٤ م ، ص ٣

[٣] المنار جـ ١ م٢ – ١١ شوال ١٣٣٥ هـ / ٣٠٩ يوليو ١٩١٧ م ، ص ٤١-٤٢

فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون إلي الإنفصال عن الدولة قلباً وقالباً متوقعين لذلك أول فرصة . ولايمكن أن يقال أن هذا كان رأى الجمهرة من الأمة العربية ، بل في الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه إذا وقع الإنفصال بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الإفرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفاً من حكم الأجانب ..." [١] .

وإلى جانب الأيادى الإستعمارية التى كانت حريصة على قصم الروابط القائمة بين العرب والترك ، جاءت سياسة جمعية **الإتحاد والترقي** – لاسيما بعد وقوعها تحت الدعوة الطورانية – ومحاولاتها تتريك الأقاليم العربية وإحياء العصبية الطورانية والكيد للإسلام ومساندة الصهيونية لتحقيق أطماعها فى فلسطين عوامل أساسية في تحويل إتجاه القضية العربية على عهد الأتراك الإتحاديين نحو الاستقلال ، وساعد على ذلك الهزات العنيفة التي أصابت الدولة العثمانية في ذلك العهد بين عامي (١٩٠٨ و ١٩١٣) والتي بدأت بمحاولة السلطان عبد الحميد إسترداد مركزه والقضاء على جمعية الإتحاد والترقي ولكن محاولته لم تنجح وإنتهت بعزله ونفيه في أبريل سنة ١٩٠٩م وخلفه الأمير رشاد " **محمد الخامس** " ولكن السلطة الحقيقية ظلت في أيدى زعماء الإتحاديين [٢] .

ويجدر بنا هنا أن نقف قليلاً لنتبين موقف الأمير شكيب أرسلان من أحد الشخصيات الرئيسية التي ثار حولها جدل عظيم في عصر الأمير ومن بعده ، وأقصد بهذا السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولي أمر الخلافة سنة ١٢٩٤ هـ .

موقف الأمير شكيب أرسلان من السلطان عبد الحميد :

السلطان عبد الحميد الثاني هو أحد الشخصيات الرئيسية التي دارت حولها أحداث الخلافة فالقيت عليه التهم جزافاً ، فوصفوه بالإستبداد وأنه (**السلطان الأحمر**) وغيرها من الصفات التي روجها أعداؤه وخصومه من الداخل والخارج ولا ننسى أن وكالات الأنباء والصحافة التي سيطرت عليها العناصر اليهودية والصليبية قد تزعمت حركة تشهير واسعة

---

[١] تعليقات الأمير على إبن خلدون ، شكيب أرسلان ص ٣٤١

[٢] نكبة الأمة العربية ، مرجع سابق ، ص ٨٣

النطاق ، أخذت ترددها بتكرار وإلحاح حتي صارت وكأنها حقائق [١] . ولقد كان الأمير شكيب أرسلان من القلائل الذين أنصفوا السلطان عبد الحميد ، ودافعوا عن أخلاقه وسياسته وإدارته وتحدث عن نفاذ بصيرته ، وحدة ذكائه ، وإخلاصه لدينه وأمته .

ومن القضايا التي إتخذها أعداء السلطان عبد الحميد وسيلة للطعن في إدارته ، مسألة إستكثار السلطان من الجواسيس ، حتي زعموا أن الحل والعقد صار بأيدى هؤلاء الجواسيس لكثرتهم وحصولهم علي الحظوة عنده .

ويرد الأمير هذه التهمة عن السلطان عبد الحميد فيقول " وليس من الصحيح أن السلطان كان يعمل بموجب تقاريرهم كما هو شائع ، بل كان يرمى أكثرها ولا يصدق ما فيها ، ولكن اهتمامه بقضية أخبار الجواسيس ألقى الخوف في قلوب الرعية وصارت في قلق دائم ، وأصبحت الناس تبالغ في الروايات عن الجواسيس فساءت سمعة الحكومة ، وسخط الرأى العام علي هذه الحالة ، وبرغم ماكان السلطان يعفو ويصفح ويجود ويمنح ، كانت سمعته بعكس ماكان يفعل " [٢] .

وينفي الأمير شكيب أرسلان أن تكون إدارة السلطان عبد الحميد هي المسؤولة عن جميع الخطوب التي أصابت الدولة في عهده ويوضح الأسباب الحقيقية وراء ماأصاب الدولة العثمانية في ذلك العهد فيقول " خطوب المملكة كانت لها أسباب داخلية وخارجية لاتذكر قصة الجواسيس في جوانبها شيئاً . فأما العوامل الداخلية فهي إنحطاط درجة التعليم عما يجب أن تكون ، وإستيلاء الجهل ، وإنقسام سكان المملكة إلي أقوام شتي كل منها له هدف غير هدف الآخر ، ومنها ماهو عدو عامل لايرضيه إلا زوال الدولة العثمانية . ثم ما وقر في قلوب الناس أجمعين من قرب أجل هذه الدولة فصارت أشبه بالمريض الذى إنقطع الأمل من شفائه " [٣] .

---

[١] د.مصطفى حلمى ، الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ص ٩٦ دار الدعوة ١٩٨٥م.

[٢] تعليقات الأمير شكيب علي مقدمة إبن خلدون ، ص ٣٣٤

[٣] المرجع السابق، ص ٣٣٤

"فأما العوامل الخارجية فهي مطامع الدول الأوربية في أجزاء هذه السلطنة كل دولة منهن تحب أن ترث شقصاً من هذه التركة فهي تدس الدسائس في البلاد التي هي مطمح نظرها حتي تتوصل منها إلي مأربها " [١] .

"وكان السلطان عبد الحميد علي وعى بالمخاطر الخارجية ونوايا الدول نحوه فكيف يجابه هذه الدول بمفرده ؟! . لقد إستولى الروس على بعض ولايات آسيا الوسطى العثمانية ، وإستولي الإنجليز علي الهند وسعوا لتأمين سلامة الطريق إليها ، كما ولدت أمريكا دولة فتية ، وإنتظم يهود العالم وسعوا عن طريق المحافل الماسونية في سبيل الأرض الموعودة . أورد السلطان عبد الحميد هذه الحقائق جوله في مذكراته ثم أعقبها بقوله (**لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى بمفردى**) [٢] .

ويذكر الأمير شكيب أرسلان كيف إستطاعت الدول الأوربية والجمعيات المناوئة للحكم العثماني أن تتسلل إلي داخل الدولة عن طريق كثير من رجالات الأتراك المتشبعين بمبادىء الحرية الذين هجروا بلادهم وأقاموا بباريس وصاروا ينشرون نشرات ينتقدون فيها الحكم الحميدى ، ويبثون روح الثورة بين الناشئة فكان السلطان يجتهد في إسكات هذه الفئة التي كانت تشوه سمعته في العالم ، خاصة أنه كان يعلم أن الروس والفرنسين والإنجليز حاولوا إسقاط عمه السلطان عبد العزيز – بواسطة عملائهم – في نظر الشعب بالشائعات فنجحوا بذلك في تمزيق الجيش والأسطول لتمزق العلاقات بين ضباطه حيث كان البعض يؤيد الأسرة المالكة والآخر يعارضها [٣] .

" ولما كانت الجمعيات الأرمنية بطبيعة الحالة تميل إلي إسقاط السلطان عبد الحميد مدت أيديها إلي هؤلاء الأتراك الذين كانوا قد هجروا أوطانهم إلي أوربا وشرعوا في التحريك لأجل إعلان الحكم الشورى في تركيا . وكان بعض المسيحين من سوريا مشتركين أيضا في هذه الحركة ، وكل فئة من هذه الفئات كانت لها أغراض غير أغراض الأخرى

---

[١] تعليقات الأمير شكيب على مقدمة إبن خلدون ، ص ٣٣٥

[٢] الأسرار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٨

[٣] الأسرار الخفية ، مرجع سابق ، ص ٩٩

في الحقيقة ، ولكنها كانت تجتمع في نقطة واحدة وهي ؛ مقاومة السلطان ، والعمل لإسقاطه " [١] .

ظهور جمعية الإتحاد والترقي

وفي هذه الحقبة التاريخية الهامة ، يروى الأمير شكيب كيف تكونت (**جمعية الإتحاد والترقي**) السرية ، من بعض الشبان الأتراك في سلانيك ، وأخذوا يجتذبون إلي جمعيتهم كل الوطنين المخلصين الذين قدروا علي إجتذابهم برغم شدة المراقبة ، حتي أن بعض المستخدمين في الحكومة إنضموا إلي هذه الجمعية ، ويشير الأمير إلي إجتماع أعضاء الجمعية في المحافل الماسونية ، وإلي أن معظم إجتهاد هذه الجمعية السرية كان متوجهاً إلي إستجلاب الجيش حتي تصير في إيديهم القوة اللازمة لخلع السلطان .

وكانت دعوة أعضاء هذه الحركة في بدايتها ، وحجتهم في إقناع ضباط الجيش أن هذه العصائب البلغارية واليونانية إنما تشاغب لأجل الحصول علي إدارة حسنة يستريح في ظلها السكان وهذه الإدارة غير ممكنة مادام السلطان عبد الحميد علي عرش السلطنة ، فأما إذا أمكن خلعه ، وجعل الحكم في السلطنة دستورياً شورياً كما هو في سائر الممالك المتمدنة فإن جميع هذه المشاغبات تنتهي من نفسها ، وهكذا تنجوا السلطنة العثمانية من خطر السقوط المحدق بها [٢] .

ويرد الأمير شكيب علي دعوة الإتحاديين بأنه إدعاء غير صحيح " بل حقيقة الحال أنه سواء إصطلحت الإدارة العثمانية أم لم تصطلح فالبلغار إنما يجتهدون في ضم البلاد المأهولة بالبلغار إلي مملكتهم ، واليونان إنما يسعون في ضم البلاد التي أكثرها منهم إلي مملكتهم ولن يرضوا بالبقاء تحت حكم الأتراك ماستطاعوا إلي ذلك سبيلاً " [٣] .

ويذكر الأمير أن الشبان الأتراك الذين إنضموا إلي جمعية الإتحاد والترقي فيما بعد منهم من كان يؤمن بأقوال العصائب اليونانية والبلغارية ، ومنهم من لم يكن يؤمن بها ولكنه كان يجد أن طريق النجاة لن تكون إلا بإعادة الدستور وجعل الحكم في السلطنة للشورى [٤] .

---

[١] تعليقات الأمير شكيب على مقدمة إبن خلدون (مرجع سابق) ، ص ٣٣٦

[٢] ، [٣] ، [٤] تعليقات الأمير شكيب على إبن خلدون ، ص ٣٣٩ – ٣٤٠

والحق أن جمعية الإتحاد والترقي كانت موضع شبهات منذ وقت مبكر إذ إتهمت بأنها جمعية يهودية وأن أعضاءها لم يكونوا أتراكاً ولا مسلمين ، يقول شكيب " :ولما كان الإتحاديون يتظاهرون بالتفرنج ويتساهلون بأمور الدين ، ويتكلمون أحياناً بما يخالف الشرع ؛ مال جمهور العلماء وأنصار المبادىء الإسلامية إلي هذا الحزب الذي شرع بمصادمة جمعية الإتحاد والترقي ، وألفوا تحت رئاسة الشيخ (**درويش وحدتى**) عصبة سموها (**الوحدة المحمدية**) وأخذ حزب الأحرار يمد يده إلي حزب الرجعيين ليكونا يداً واحدة علي حزب الإتحاد والترقي ، فإشتدت المعارضة في وجه الإتحاديين " [١] .

وأدى ذلك إلي نشوب الصراع بين الإتحاديين وأنصار المبادىء الإسلامية إنتهي بإنتصار الإتحاديين ودخول الجيوش المؤيده لهم إلي العاصمة تحت قيادة شوكت باك .

ويروى الأمير شكيب أرسلان أن السلطان عبد الحميد رفض المقاومة خوفاً من حرب أهلية ، " وكان يحيط بقصر يلدز سبعة آلاف من الجيش المخلص للسلطان إلا أنهم لم يروا السلطان ناوياً المقاومة فخضعوا لمحمود شوكت باشا ، وفي ٢٦ ابريل تقرر في مجلس الأمة خلع السلطان " [٢] .

إشتداد العصبيات الجنسية

كان السلطان عبد الحميد مقاوماً شديداً للعصبية الجنسية التركية ، بل ماقتاً بطبيعته وغريزته مقتاً كبيراً لكل عصبية جنسية أية كانت ماهيتها ، وكان يرى أن من شأن هذه العصبيات أن تحول بينه وبين الوصول إلي غايته الكبرى وهي الجامعة الإسلامية [١] .

علي أن سيطرة أعضاء جمعية الإتحاد والترقي علي مقاليد الأمور في الدولة بعد ثورة ١٩٠٨م ثم عزلهم للسلطان ونفيه في أبريل ١٩٠٩م وتولية الأمير رشاد (محمد الخامس) خلفاً له مع إحتفاظ الإتحاديين للسلطة الحقيقية في أيديهم ،قد فتح الباب أمام العصبية الجنسية

---

[١] المرجع السابق ، ص ٣٤٢

[٢] الأمير شكيب أرسلان : تعليقات الأمير على مقدمة إبن خلدون ، الجزء الأول ، ص ٣٤٥

[٣] حاضر العالم الإسلامي ، ستودارد الجزء ٤ ص ٨٠

التركية فإنطلقت تلك العصبية التي عرفت (**بالدعوة الطورانية**) [١] من عقالها. ولم يكن قادة جمعية الإتحاد والترقي متأثرين بهذه الدعوة الطورانية فحسب بل كانوا يؤيدونها ويقدمون لها الإعانات المالية (وتسمي إعانات الملية التركية) وكان كبار قادة الإتحاديين أعضاء منتمين إليها [٢] ، ومن هذه القاعدة إستمدوا سياسة تتريك الشعوب العربية والشعوب العثمانية الآخرى [٣] . وكان لهذه السياسة الأثر العظيم في تحويل إتجاه القضية العربية نحو الإستقلال علي عهد الأتراك الإتحاديين ونمو العصبية الجنسية العربية .

وفي سنة ١٩١١ إعتدت إيطالية علي طرابلس الغرب (ليبيا) فغضب شكيب من هذا العدوان ، وكتب إلي مختلف الجهات يحرض علي نجدة العرب في طرابلس ، ويحس علي مدهم بالأموال والسلاح ، وأبرق إلي المسئولين في الآستانة بذلك [٤] . وفي سنة ١٩١٢ يسافر الأمير شكيب إلي طرابلس الغرب (ليبيا) ليلتحق بصفوف المجاهدين ضد الجيش الإيطالي المعتدى علي ذلك الوطن الإسلامى ، وقد خرج من هذه التجربة وقد إزداد تيقناً بأن القوى الغربية الصليبية تتحالف لإلتهام بلاد العرب قطعةً قطعةً ، ولاسبيل للنجاة إلا بالتمسك بالرابطة العثمانية التي تمثل العزة للإسلام والقوة للعرب وإزالة أسباب التوتر بين العرب والأتراك .

وفي سنة ١٩١٢ سافر الأمير شكيب من طرابلس إلي تركيا حيث أختير مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصرى فقام بمهمته علي خير وجه [٥] .

وما أن تنشب الحرب العالمية الأولي سنة ١٩١٤ حتي يتخذ شكيب بيعد نظره ووعيه الإسلامي الصادق موقفاً مختلفاً لموقف زعماء العرب وقادتهم في ذلك الوقت . ولقد ظن العرب أنهم بوقوفهم إلي جانب الحلفاء ضد الألمان والدولة العثمانية سيحصلون علي إستقلالهم الكامل . ووقف شكيب يومها ضد رأى الأغلبية التي كان يتزعمها الشريف حسين

---

[١] الدعوة الطورانية : تهدف إلى إحياء العصبية التركية والجمع بين العناصر التركية التترية والبلغارية والقوقاز وهدم المدنية الإسلامية ، " نكبة الأمة العربية " ص ٨٢

[٢] المنار ، مجلد ١٩ ، جـ ٤ ، ٢٨ سبتمبر ١٩١٦ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦

[٣] محمد الخير عبد القادر / نكبة الأمة العربية / ص ٨٢

[٤] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد السرباصي ، ص ٢٩ - ٣٣

[٥] شكيب أرسلان داعية العروبة ، أحمد الشرباصي ، ص ٢٩ - ٣٣

ملك الحجاز آنذاك ، فقد صرخ بأعلي صوته في المحافل ووجه الرسائل ودبج عشرات المقالات قائلا أنه لن ينصر الدول الإستعمارية علي الدولة الإسلامية مهما كانت عيوبها ، وأن علي العرب ألا يغتروا بوعود الغرب لأن هدف هؤلاء أن يتخذوا العرب جسراً إلي قتل الدولة الإسلامية ليلتهموها ثم يلتهموا أجزائها العربية بعد ذلك ، واعتبر بطرابلس الغرب ومن قبلها الجزائر وتونس .

وكان من سوء حظ شكيب أن الولاة العثمانيين والباب العالي والقادة العسكريين حين عرفوا موقف العرب منهم صمموا علي مقابلة عداء بعداء [١] .

" وعينت تركيا القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثماني والياً علي سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فبغي وطغي ، والجم الألسنة وأرهب الناس ، وكان يمثل النزعة الطورانية بأقصي صورها وتعصبها ، وهو من جماعة الإتحاد والترقي " [٢] .

وفي سنة ١٩١٦ وجهت تهمة الخروج علي الدولة إلي زعماء وأعضاء الجمعيات العربية في سوريا ، وحكم بالموت شنقاً علي ثلاثين منهم ، كما صدر الحكم غيابياً بالموت شنقاً علي نحو ستين ، وعوقب آخرون بالنفي أو السجن [٣] .

---

[١] الدكتور سامي الدهان ، الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، ص ٧٤

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، جـ ١ ، ص ٤٤

[٣] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، جـ ١ ، ص ٤٤

موقف الأمير شكيب من الثورة العربية بقيادة الشريف حسين

يقول الشيخ أحمد الشرباصي ، " ويذهب أكثر من باحث إلى أن مأساة الشنق كانت سبباً في تعجيل الشريف حسين بن علي أمير – مكه الذي كان يفاوض الحلفاء سراً – بإعلان الثورة ضد الأتراك ، ودخول العرب في صف الحلفاء في شهر حزيران (يونية) ١٩١٦م ، أى بعد شهر من تعليق الشهداء على المشانق ، ونستطيع أن نقول أن المأساة كانت أقوى تمهيد لإعلان تلك الثورة " [١] .

ولكن الأمير شكيب أرسلان ينفي نفياً قاطعاً أن تكون سياسة جمال باشا هي التي أحدثت المسألة العربية مع إقراره بأن سياسته كانت متهورة وخارجة عن دائرة المعقول في كثير من الأمور ، فيقول : " جنت الدولة جناية كبرى على نفسها وعلى العرب واترك معاً بأن سلمته زمام سوريا مدة الحرب تسليماً مطلقاً ، مع مافي نحيزته من الإستعداد للإستبداد ، والنشوة بخمرة النهى والأمر ، فمضي في شهواته وأهوائه ، غير حاسب ولا مراقب ، ولا ناظر إلي العواقب " [٢] .

ويمضي شكيب في عرض سياسة البطش التي إتبعها جمال باشا في سوريا ثم يقول : " أما كون سياسته هذه هي التي أحدثت المسألة العربية ، ولولا قتله من قتل من كبار السوريين وأدبائهم لم يكن ثار الشريف علي الدولة ، ولا إنشق العرب علي الترك ، فليس بصحيح . إذ علاقة الشريف بالإنجليز وتحفزه للقيام علي الدولة في أول فرصة تلوح يرجعان إلي أيام السلطان عبد الحميد نفسه الذى كان يعلم ذلك ولما أخذ الإتحاديون علي يد السلطان وأجبروه على نصب الشريف حسين أميراً على مكة ، مكان الشريف على قال لهم " انني أبرأ من تبعة كل ماسيعمله هذا الرجل لأننى أعرف حقيقته " [٣] . ويؤكد الأمير شكيب أن الشريف حسين كان علي إتصال بإنجلترا من قبل الحرب العامة وانه عرض عليها أن تمد العرب بالسلاح لينقضوا على الدولة ، ويكونوا حلفاء لإنجلترا في المستقبل ، ولكن الخارجية الإنجليزية رفضت ولم تكتم السبب في رفضها " وهو أن إنجلترا تريد هي الإستيلاء علي بلاد العرب فلا يوافقها أن تعطي جزيرة العرب سلاحاً " [٤] .

---

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، جـ ١ ، ص ٤٥

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠

[٣] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠ – ٣٩١

[٤] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠ – ٣٩١

" ثم إن الشريف حسين راجع إنجلترا في مشروع التحالف العربي الإنجليزى لأول الحرب ، فلم يجيبوه أملاً في إستغنائهم عنه ، فلما إشتدت الحرب على الإنجليز شعروا بالإحتياج إلي العرب ، فعادوا إلي قبول إقتراح الشريف " [١] . وعلي هذا فان قسوة جمال في سوريا وقتله من قتل لم يكونا سببا ثورة الشريف في رأى الأمير شكيب ، بل كانت الثورة واقعة سواء قتل جمال من قتله أو لم يقتله [٢] . لذلك لم يكن غريباً أن يمتنع الأمير شكيب عن المشاركة فيما سمى بالثورة العربية الكبرى التي إنطلقت من الحجاز يقودها الشريف حسين سنة ١٩١٦م وكان موقف شكيب حينئذ عصبياً ، فقد كان ضد التيار العام ، وخارجاً علي رأى الأكثرية ، وبادياً في صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بنى عثمان ! وإن تكن الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ماتوعد به وحذر منه [٣] .

الأمير شكيب أرسلان والقضية العربية

وإنتهت الحرب العالمية الأولي ، ووقع ماحذر منه شكيب وتقاسمت الدول الإستعمارية البلاد العربية ونكثت بوعودها لحلفائها العرب ، ومع دخول فرنسا لبنان وسوريا إختار شكيب المنفي ، فغادر الوطن قاصداً تركيا سنة ١٩١٧م . ويستقر الأمير شكيب أولاً في بلدة (مرسين) التركية علي مقربة من الحدود السورية ، ولكن إقامته لم تطل ، فالهزيمة التي منيت بها تركيا في الحرب ثم دخول اليونان الأراضي التركية قد زلزلا تماسك الدولة ، فكان صعود مصطفي كمال وتيار الأتاتوركية الساعي إلي التتريك الصرف وقطع الأواصر بالإسلام والشرق والتحول بدلا من ذلك نحو العلمنة والأخذ بالطريق الاوربي . ولما سقطت راية الخلافة العثمانية توجه شكيب لجمع كلمة العرب ودعي إلى وحدته ليرفع برايتها كلمة **لا إله الا الله** من جديد . ووضح شكيب منذ البداية الأمر لدعاة القومية العربية بأن لاوحدة للعرب إلا بالإسلام ، فهو الذى وحدهم وأن الدعوى بالوحدة العربية من أي منطلق آخر غير إسلامي باطلة من أساسها "وان العرب لم يكونوا ليتحدوا في يوم من الأيام إلا بالإسلام ولولا الإسلام لبقوا شعوباً وقبائل يقتتلون في جزيرة العرب إلي يوم القيامة " [٤] .

---

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامي ، جـ ٤ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

[٣] الشيخ أحمد الشرباصي ، أمير البيان ، جـ ١ ، ص ٤٦

[٤] شكيب أرسلان ، تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦ .

وبعد حين سافر شكيب من (مرسين) إلي (**برلين**) واشترى هناك بيتاً أقام به سنوات ، وأخذ يجاهد بقلمه ولسانه وفكره في سبيل العروبة والإسلام [١] ، ومد يده للملك فيصل ينصره ويؤيد دعوته إلي الجامعة العربية ، حتى قال الملك فيصل لشكيب : " **أشهد أنك أول عربي تكلم معى في الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية** " [٢] .

وفي سنة ١٩٢٢م إجتمع الزعماء العرب في القاهرة ، وشكلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطيني ، وقرروا تأليف وفد عربي يدافع عن سوريا وفلسطين ، ويتابع المحاماة عن حقوقهما والعمل لإستقلالهما في جمعية الأمم بجنيف ، فإنتخبوا الأمير شكيب سكرتيراً أول للوفد . وسافر شكيب إلي جنيف سنة ١٩٢٥م للقيام بهذه المهمة الجديدة بتكليف من قومه [٣] .

وللأمير شكيب أرسلان تراث ضخم من مئات المقالات والخطب ضمتها كبريات مجلات العصر مثل (**الفتح والشورى و المؤيد**) . وقام الأمير بأمر الوفد السورى الفلسطيني فقرع أبواب الدول وقابل المسئولين ، وإحتج وخطب وكتب ، ونشرت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطيني مافعله الوفد في الغرب في كتاب عنوانه " **أعمال الوفد السورى الفلسطيني من مايو ١٩٢٢م إلي اكتوبر ١٩٢٢م** " [٤] .

وفي سنة ١٩٢٩م حج شكيب إلي بيت الله الحرام ، وقد بلغ الستين من عمره ، وإلتقي بالملك عبد العزيز آل سعود ، ووضع عن هذه الرحلة كتابه " **الإرتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلي أقدس مطاف** " [٥] .

وفي سنة ١٩٢٠ قام برحلة إلي اسبانية ، وعاد فكتب كتابه " **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط** " . كما بدأ يفكر في إصدار كتابه الجليل " **الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية** " وأنشأ في هذه السنة نفسها مجلة بالفرنسية سماها " **الأمة العربية** " في جنيف [٦] جندها لخدمة أهداف أمته ، مماجعل فرنسا تعتبره

---

[١] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ٤١

[٢] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ٤١

[٣] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٨٤

[٤] المرجع السابق ، ص ٨٤

[٥] الشيخ أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الإسلام ، ص ٥٢

[٦] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٩١

عدوها الأول في العالم العربي .

وفي سنة ١٩٣٤ وقعت حرب بين إبن السعود والإمام يحي ، وقررت لجنة المؤتمر الإسلامي في القدس إرسال وفد إلي جزيرة العرب ، وأختير شكيب في الوفد ، فسافر للإصلاح بين العاهلين ، وكانت له يد فضلي علي العرب في جمع الشمل [١] .

وعلي الرغم من جهاد الأمير وبذله لكل طاقته لخدمة أمته إلا أن هذا لم يسكت عنه خصومه ، فقد وقع له أن إتهمته شرزمة ضالة بأنه تواطأ مع السيد أمين الحسيني الزعيم الفلسطيني علي السير في ركاب إيطاليا لقاء مال تناوله ، ثم تبين أن التهمة ملفقة وأن ورائها الإنجليز لينالوا من سمعته ويضعفوا منزلته في قومه غير أن هذه التهمة الباطلة شغلت من وقت وجهد الأمير الشيء الكثير [٢] .

وكان لابد لشكيب أن يعيش في المنفي لأنه وجد أن عدة دول تطارده ، ففرنسا تريد الإنتقام منه لتأليبه شعبي المغرب والشام عليها ، وإنجلترا تريد الإنتقام منه لإتصالاته بالوطنيين في البلدان التي تحتلها ، حتى تركيا التى لجأ إليها من قبل لم يعد بإستطاعتها إيوائه بعد أن خلعت لباس الإسلام وتعرت بالعلمانية ولحملته علي تنكر الحكام الأتراك للخلافة والإسلام ، وملك الأفغان أمان الله خان يطلب رأسه لأنه وقف ضد سياسة هذا الملك المتفرنج الذى كان يقلد مصطفى كمال في كل شيء . حتى مصر كان " الملك فؤاد " يطارده ويمنعه من دخولها [٣] .

وفي سنة ١٩٣٧ سمح للأمير بأن يزور سوريا ، فطاف بلدانها وخطب في قومه ، وإختاره المجمع العلمي العربي بدمشق رئيساً له تكريماً له لجهاده وإكباراً ليده . ولكن فرنسا عادت فنقضت المعاهدة التى كانت قد عقدتها مع سوريا سنة ١٩٣٦م فترك شكيب رياسة المجمع ، وعاد إلى أوروبة [٤] .

وفي سنة ١٩٣٩م أذن المسئولون فى مصر له بزيارتها ، فزارها وقضى فيها نحو أربعة أشهر ثم عاد إلي أوربة وقد بلغ السبعين من العمر [٥] .

---

[١] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٩٢

[٢] د. سامي الدهان ، شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٩٥

[٣] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٤٨

[٤] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

[٥] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة ، ص ٥٣

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م خرجت فرنسا من سورية ولبنان . وتحققت أكبر أمنية من أماني حياة شكيب وقد جاوز السادسة والسبعين من العمر ، فعاد إلي وطنه فقيراً مريضاً بعد أن وهب كل ماله وكل نبض قلبه في سبيل أمته ، ولكنه كان سعيداً يوم وصل بيروت في ٣٠ اكتوبر ١٩٤٦م فإستقبلته لبنان عن بكرة أبيها ، وتابعه عالمه الإسلامي بإعجاب وإكبار ومحبة .

وفي يوم الإثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦م لحق شكيب أرسلان بربه ، بعد حياة طويلة حافلة . وصلوا عليه في جامع العمرى ببيروت ثم نقلوا جثمانه إلي قريته " الشويفات " حيث دفن فيها بجوار أخيه عادل أرسلان [١] .

وكان آخر ماقاله للأستاذ عبد الله المشنوق ، حينما إلتقي به قبل موته بأيام : أحمد الله عز وجل الذى سهل لى أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذى أحببته ، وأنا سعيد أن أدفن في تربة طاهرة لاترفرف فوقها راية أجنبية ، وأنا سعيد أن ألاقي وجه ربي الكريم ، فأعيد هذه الأمانة إلي بارئها بعد أن تحققت أحلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله . وسأخبر رفاقي في الجهاد أن تضحياتهم لم تكن عبثاً . وتحدرت من عيني الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً وجذب يد الأستاذ المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود أن أوصي بها فهل تعدني بأن تنقلها إلي العالم العربي بعد وفاتى ؟ ، قال : نعم ، وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجفتين وقال بصوت كادت تخنقه العبارات : أوصيكم بفلسطين [٢] .

---

[١] أحمد الشرباصي ، شكيب أرسلان داعية العروبة (مرجع سابق) ، ص ٥٥

[٢] لماذا تأخر المسلمون ؟ نظرة عامة عن أمير البيان ، ص ١٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت . عمر على الطاهر ، ذكرى الامير شكيب أرسلان ، ص٥٠٥ - ٥٠٦ ، بيروت ١٩٧٧م ط ٣ .

الأمير شكيب أرسلان

نسبه وأسرته

ينتسب الأمير شكيب الى أسرة آل أرسلان ,وهى أسرة عريقة من سلالة القبائل العربية الذين عرفوا في التاريخ بالمناذرة ملوك الحيرة ,وكان الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور قد طلب اليهم أن تنزح بعض بطون قبائلهم الى لبنان لحماية السواحل من بغتات الروم وتأمين الطرق من بعض السكان هناك الذين عرفوا بالمردة , واعتادوا نهب القوافل والغارة على القرى والمدن ومساعدة الروم في حرب المسلمين ، فصدع اثنان من زعماء القبيلة هما الأمير المنذر بن مالك وأخوه الأمير أرسلان لطلب الخليفة ورحلا بجموعهما سنة 142هـ الى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام في وادى تيم حيث كان ينزل بنو عمومتهم , وتفرقت هذه الجموع العربية في جبال لبنان , وكانت لهم مواقع مع المردة كان الأنتصار فيها للعرب فذاع أمرهم وقوى شأنهم وأقرهم الخلفاء العباسيون على إمارة هذه الأقاليم التى صارت إقطاعات لهم [١] .

واستمرت هجرة القبائل العربية الى لبنان وحوران ووادى اليتم , واقتسم امارة منطقة حوران بنو شهاب القرشيون والأمراء التنوخيون [٢] .

وفي عام ٨٧٥هـ هزم الأمير النعمان بن عامر الأرسلانى جحافل المردة على نهر بيروت هزيمة منكرة جعلت الخليفة العباسي المتوكل يكتب اليه يمدحه ويقره على ولايته له ولذريته من بعده ويرسل اليه سيفا ومنطقة وشاشا أسود شعار العباسيين [٣] .

دخول آل أرسلان في الدعوة الفاطمية

وفي سنة ٣٥٨ هـ قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام .

---

[١] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، دار المعارف ، ص ٨

[٢] المرجع السابق ، ص ٩

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٣

وبعد أن استولى على الرملة وطبرية كتب الى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان عامر أمير بيروت يدعوه الى بيعة المعز ، فاستشار سيف الدولة عشيرته فأجمعوا على مصانعته حتى يروا ما يكون منه ، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز لدين الله ، وبذلك دخلت هذه القبائل فى الدعوه الفاطمية [١] .

وأقر الفاطميون الأمراء الأرسلانيين علي مابأيديهم من الولايات الإقطاعية وأصبحوا من شيعة الفاطميين ـ مع أن الأمير سيف الدين المتوفي سنة ٣٦٠ هـ كان من أعلم أهل زمانه بمذهب مالك وله في ذلك كتاب " **تيسيرالمسالك إلى مذهب مالك** " كما كان علي علم تام بأصول مذهب الأوزاعى وله في ذلك كتاب " **الأقوال الصحيحة في أصول مذهب الأوزاعي** " [٢] .

ثم أخذت الدعوة الفاطمية تنتشر في بلاد الشام بفضل الدعاية المنظمة التى وضع الفاطميون أسسها ، وكانت قبائل تنوخ في بلاد المعرة وفي وادى التيم وجبال لبنان أسرع أهالي الشام قبولاً لها وبالرغم من وجود بعض حركات ثورية في الشام كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق الي أن جاء الحاكم بأمر الله الفاطمي وأعلن مذهبه الجديد ، فكان أهل وادى التيم وحوران وجبال لبنان هم الذين تقبلوا هذه العقيدة وظلوا يحافظون عليها الي الآن .

وعلي الرغم من تمذهب آل أرسلان وأهل وادى التيم وحوران وجبال لبنان او من اصطلح علي تسميتهم **(بالدروز)** بهذه العقيدة إلا أن ذلك لم يحل دون قيامهم بأعمال بطولية مع إخوانهم المسلمين في الحروب الصليبية مما يذكر لهم في التاريخ في صفحات الفخر والاعتزاز . ففي سنة ١١٠٠ م حارب أهل وادى التيم جيوش **(بلدوين)** الفرنسى في مغازاة نهر الكلب وفي السنة التي تليها حاربوا جموع ريموند . وفي سنة ١١١٠ م حاول بلدوين فتح بيروت وحاصرها برا وبحرا ودافع عنها الامير شجاع الدولة الأرسلانى ، فاضطر بلدوين إلى أن يستعين بالمردة وبالإمارات الصليبية في شمال لبنان وفلسطين ، وتكاثرت جموع الصليبين والارسلانيون يدافعون عن بلدهم دفاعا مجيدا واستمر القتال زهاء شهرين

---

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٩

[٢] المرجع السابق ، ص ٢٤

إلى أن سقطت المدينة بعد أن قتل عدد كبير من الأمراء الأرسلانيين .

وفي سنة ١١٢٦ م بدأ الامير مجد الدين ينظم صفوفه (جموعه) وأخذ يهاجم بهم الصليبيين حتي قتل فتولي الإمارة بعده أبو العشائر ناهض الدين بحتر بن عضد الدولة الذى سار سنة ١١٥١ م واوقع بالصليبين هزيمة منكرة عند رأس التينة [١] .

وفي حروب التتار – وخاصة في موقعة عين جالوت – كان الآمير زين الدين صالح الأرسلاني يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم الفوز للمسلمين .

وفي سنة ١٥١٦ م قام السلطان سليم الأول العثماني بغزو الشام ومصر ، وانضم إليه آل معن وآل أرسلان برجالهم من الدروز ؛ فاعترف العثمانيون لهم بالإمارة في لبنان وتولي الأمير جمال الدين الأرسلاني [٢] بلاد الغرب والمتن والجرد ، ثم اصبح أميرا علي جبل لبنان الجنوبي .

من هذه اللمحة التاريخية عن اسرة آل ارسلان العريقة ،تتضح سياستها – التي تمثل سياسة الدروز في كل العصور – وهي سياسة عربية اسلامية قبل كل شيء . كما يظهر نسبهم العربي الأصيل بخلاف من زعم غير ذلك ، وقد بلغ من حرصهم علي اثبات نسبهم أن كل أمير منهم كان يذهب الي الثقات من العلماء والشيوخ الأجلاء ليكتب له سجلا ينسبه ، وقد نشر المرحوم شكيب أرسلان هذا السجل في آخر ديوان شقيقه نسيب أرسلان وهو الديوان المعروف " **بروض الشقيق في الجزل الرقيق** " .

والحق أن الأمير جهد جهداً كبيراً في كتابة هذا النسب فعاد الي مصادر التاريخ يتتبعها ويناقشها ويعالج نصوصها علي عادة القدماء لينتهى الي مثل الثقة في بيان تاريخه وتاريخ أهله وختم بقوله : " والقارئ يرى اننا تحرينا جهد الإستطاعة وعرضنا الروايات والآراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث إلا لأجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ ، وكذلك جريا علي شنشنة العرب في حفظ أنسابهم والتنقيب عن أخبار أجدادهم , والناس مأمونون علي أنسابهم ، وفوق كل ذى علم عليم " [٣] .

---

[١] طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ١٠

[٢] يبين الأمير سبب إنضمام قومه للسلطان سليم في مقدمة إبن خلدون ، ص ١٧٥

[٣] شكيب أرسلان ، روض الشقيق ، ص ٢٦٢

الفصل الثانى

طائفة الأمير شكيب أرسلان

مكانة آل أرسلان في المجتمع الدرزى

إسم الدروز كان - ولايزال - مثار مناقشات عديدة بين الكتاب والمؤرخين ، فالمعروف أن هؤلاء الأقوام لايحبون أن يلقبوا بهذا اللقب ويستنكرون أن ينسبهم أحد الي الداعى نوشتكين الدرزى - الداعي الفاطمى - والذى يرمونه بالالحاد والخروج عن دعوتهم وعقيدتهم ، ويطلقون علي انفسهم إسم (**الموحدين**) ، وهو الاسم الذى عرفوا به في كتبهم المقدسة[١] .

والدروز ينقسمون مدنيا الي امراء ومشايخ وعامة ، الأمراء هم آل أرسلان بلبنان ، وهم الذين يتولون الزعامة السياسية يشاركهم فيها الجمبلاطية وهؤلاء من المشايخ ومن المشايخ ايضا اليزبكية والشقرا بلبنان .

اما الدروز بسورياً فيتولي الزعامة السياسية فيهم بيت الأطرش ويتولي الزعامة الدينية بيتا الهجرى والحلبى ، " وهم معتبرون رسميا من المسلمين " ولكن لاتسرى عليهم قوانين واحكام المحاكم الشرعية بل لهم قاضي مذهب يفصل بينهم في أحوالهم الشخصية[٢] .

طبقات المجتمع الدينية عند الدروز

هذا التقسيم الذى ذكرناه لمجتمع الدروز من الناحية المدنية ، اما من الناحية الدينية فهم ينقسمون الي عقال أو اجاويد أى الذين لهم الحق في معرفة شيء من العقيدة السرية ، وهم ثلاثة أ قسام رؤساء وعقلاء وأجاويد ، ويسمي رئيسهم الديني (**شيخ العقل**) ، فهؤلاء (**العقل**) هم طبقة رجال الدين الدارسين له الحفاظ عليه ، وهم أهل الوعظ والإفتاء وبيدهم رحمة الموتي أو تركهم خارجها[٣] .

والعقال في المجتمع الدرزى يعرفون بعمائمهم ولبس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لحاهم ، ولهم نفوذ كبير علي الدروز ، وهم موضع الهيبة والخشية[٤] .

---

[١] طائفة الدروز تاريخها و عقائدها ، د . محمد كامل حسين ، ص ٦

[٢] عبد اللة الأمين ، دراسات فى الفرق و الذاهب القديمة المعاصرة ، ص ١٤٣:

[٣] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٤] د . محمد كامل حسين ، طائفة الدروز (مرجع سابق) ص ٢٩

والقسم الثاني من طبقات المجتمع الدرزى وفي درجة دينية متواضعة عن طبقة العقال تأتي طبقة الجهال : أى عامة الناس ، وهؤلاء ليس لهم الحق في معرفة أسرار الدين " علي أن طبقة الجهال يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم علي ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة "[١] . وبعد أن يعطى الدين يصبح من الأجاويد ويتحتم عليه عدم التفريط فيه أو التصريح به ويجب عليه كتمانه عن غير أهله .

والنساء في المجتمع الدرزى ينقسمن أيضا الي عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماما لافرق بين الرجل والمرأة ، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوبا اسمه (**صاية**) علي أن الغالب علي نساء الدروز هو الحجاب .

وأماكن العبادة عند الدروز تعرف بالخلوات (جمع خلوة) ويجتمع فيها العقال في مساء كل يوم جمعة لسماع مايتلى عليهم من الكتاب المقدس ، " وبعد تلاوة المقدمات يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال ، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التي ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لايبقي الا رجال الدرجة الأولي الذين لهم وحدهم الحق في سماع الاسرار العليا للعقيدة ، أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات او بسماع شيء من الكتب المقدسة الا في يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين ! " [٢] .

سرية العقائد الدرزية

ومن الحديث عن العقال والجهال ونظام الخلوات السرى يتجلي لنا مدى حرص الدروز علي سرية معلوماتهم الدينية وحرصهم علي كتمانها وعدم التصريح بها ، لذلك فان الدروز يصنفون ضمن الفرق الباطنية لإيمانهم بالتقية والقول بالباطن ، وبسرية العقائد . " فالعقيدة الدرزية تأخذ السرية على أنها مسلك ونهج أساسي وأصل من أصول عقيدتهم ، وليست تقية في المعني والقصد العادى الشائع وهو الخوف والاستتار من المكروه ، فهي كما يزعمون وقاية للحقيقة والمستضيئين بها ولمن لايستطيعون ادراكها " [٣] . وقد نشأ عن هذه السرية

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٥٣

[٢] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، مرجع سابق ، ص ٢٨ - ٢٩

[٣] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي (د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٢٩٥) ـ أضواء على مسلك التوحيد (د. سامي مكارم ، ص ٩٧) ـ وعقيدة الدروز (عرض ونقد د. محمد أحمد الخطيب)

التي تحيط مذهبهم كثير من الحدس والتخمين والإشاعات فيما يتصل بعقائدهم وعباداتهم ، يقول الشاعر خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي " ومن الناس من جاوز مهيع البحث الي ترهات التلفيق فقنع بتدوين الأقاصيص والتكاذيب ... شأن بعض المستشرقين في كثير مما يكتبون عن الشرق،ومنهم من لجأ الي الفرية فاختلق وافترى ماشاء . كل ذلك وبنو معروف [١] معتصمون بالصمت ، كأنهم يتأثمون من الافصاح بشيء عن كنه مذهبهم " [٢].

" أما القلة من بين الدروز التي ألمت بسر الدعوة وأحاطت بكنه الرسالة فقد أبت عليها منزلتها الروحية ان تفضي بما تعلم الي غير المؤهلين المستكتمين وحجتها في ذلك أن باب الإستجابة للدعوة أغلق منذ قرابة ألف عام " [٣] .

كل ذلك جعل دراسة عقيدة الدروز أمراً صعباً لما يحيط بها من غموض ولخفائها عن أكثر الناس ولاسيما من بين الدروز أنفسهم ، حتي أن الدكتور محمد كامل حسين ، أستاذ الأدب في كلية الآداب جامعة القاهرة والذى عني عناية كبيرة بالكتابة عن الشيعة والاسماعيلية خاصة يقول في مقدمة كتابه " **طائفة الدروز ـ تاريخها وعقائدها** " ان بعض أصدقاءه سألوه أن يضع كتابا عن الدروز ويعلق علي ذلك بقوله " وليس بعجيب أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الدروز أنفسهم الذين صرحوا لى بأنهم لايعرفون شيئا عن عقيدتهم بالرغم مما هم عليه من ثقافة واسعة أهلتهم أن يشغلوا مراكز هامة في المجتمع " [٤] .

" ومما يذكر في هذا المجال أن اعلاما عديدة من الدروز طالبوا بشده مشيخة عقل الدروز بالإفراج والإعلان عن حقيقة العقيدة الدرزية ولكن مشيخة العقل أصمت أذنها عن كل هذه الأصوات وخاصة أصوات الدروز في المهجر وفي مقدمتهم الدكتور نجيب العسراوى الذى مافتىء يطالب بذلك ، وعندما يئس من ذلك أصدر كتابا عن هذه العقائد باللغة البرتغالية حتي لايقرأه كل الناس " [٥] .

---

[١] يقصد الدروز الذين عرفوا بهذا الإسم لإشتهارهم بإسداء المعروف

[٢] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٨ و ٩

[٣] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩

[٤] طائفة الدروز ، عرض ونقد / محمد كامل حسين ، ص ٤

[٥] الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ، د. محمد أحمد الخطيب ، ص ٣٠٠

اما عبد الله النجار فقد كان اكثر شجاعة وعملية إذ أصدر كتابه (مذهب الدروز والتوحيد) وبسط فيه باللغة العربية وبأسلوب سهل ماطلع عليه- ودقق فيه كل التدقيق - من قواعد المذهب وفلسفته محاولا بذلك كسر جدار السرية الذى أحاط به شيوخ الدرزية مذهبهم يقول عبد الله النجار في مقدمة كتابه " ومن أولى من أصحاب البيت بتلبية نداء العلم ، وفتح الأبواب علي مصراعيها ولو كره المطمئنون خلف جدرانه . ففي ذلك تحقيق لرغبة المستطلعين ومعظمهم من أبناء المذهب نفسه " [١] .

وعلي الرغم من رغبة الاستاذ عبد الله النجار في تقديم خدمة لإخوانه في المذهب وغيرهم علي السواء ، بل رغبته في تقديم محاولته في نشر مذهبه الى المكتبة العربية لسد فراغ فيها لاغنى لها عنه في تكاملها إلا أنه كان يتوقع أن تثور عليه ثورة الدروز ، وتصب عليه نقمتهم ، حين بسط أمام الناس فلسفة هذا المذهب ، وأعلن أسراره .

وقد كان ماتوقعه الأستاذ عبد الله النجار ، فقد حاكمه مشايخ الدروز لفضحه أسرار دينه ، وجمعوا نسخ الكتاب من الأسواق وأحرقوها وصدر بأمر من مشيخة العقل كتاب ألفه الدكتور سامى مكارم وقدم له الأستاذ كمال جنبلاط يرد فيه علي كتاب الأستاذ النجار [٢] .

ويحدثنا الشيخ أحمد الشرباصي انه سمع من الأستاذ أنيس فريحه في أول يناير سنة ١٩٥٥ م أن له رسالة مخطوطة عن عقائد الدروز المعاصرين ولكنه لايستطيع نشرها ، وسمعه يؤكد أن المبادىء الدرزية القديمة مازالت موجودة وان كانت مستورة علي سبيل التقية [٣] .

---

[١] مذهب الدروز والتوحيد ، عبد الله النجار ، ص ٩ .

[٢] الحركات الباطنية ، ص ٢٩٩ (مرجع سابق).

[٣] أحمد الشرباصى ، شكيب أرسلان داعية العروبة و الأسلام ، ص ١٨ .

عقيدة الأمير شكيب أرسلان

هل كان الأمير شكيب أرسلان درزياً فى عقيدته كدرزيته فى نسبه ؟ . يؤكد الشيخ أحمد الشرباصى أن الأمير يعد من الناحية الشكليه درزياً ، ولكنه فى الإعتقاد سنياً وكان يتعبد على مذهب أهل السنة ، فهو يصوم ويصلى ويزكى ويحج كما يفعل جمهور المسلمين [١] .

ويشير الشيخ فى موضع آخر إلى تأكيد زوجة الأمير أن زوجها سنى المذهب و ينقل عنها قولها أن الدروز يحرمون الزواج من سنية ولكن زوجى تزوجنى وأنا سنية مسلمة . ويعلق الشيخ على ذلك التناقض بين نسب الأمير شكيب وعقيدته بقوله : وقد تسبب هذا الوضع فى متاعب لشكيب ، فمن الدروز من لايرونه درزياً كاملاً ، ومن السنيين من لايرونه سنياً كاملاً ، فضاع جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء [٢] .

ونحن أيضا نتساءل : إذا كان الأمير شكيب سنياً فى عقيدته فلماذا كان يحرص على الدفاع عن عروبة الدروز وإسلامهم وكرم أخلاقهم وتأكيده الدائم على أن فرقة الدروز فرقة إسلامية فى كل شىء كغيرها من الفرق الإسلامية التى لها تعاليمها الخاصة ومع ذلك لايخرجون عن جملة المسلمين . ونحن لانشك فى نسبة الدزوز العربية ، فهم يعتزون بعروبتهم حتى أنهم غيروا إسم جبل الدروز الى إسم " **جبل العرب** " إمعاناً فى عروبتهم [٣] ولكننا لا نتفق مع الأمير شكيب أرسلان فى قوله أن فرقة الدروز فرقة إسلامية فى كل شىء ، وأن تعاليمها الخاصة لا تخرجها عن جملة المسلمين ، وسيأتى تفصيل ذلك عند

---

[١] أحمد الشرباصي ، الأمير شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام ، ص ٢٢.

[٢] أحمد الشرباصي ، أمير البيان شكيب أرسلان ، جـ ١ ص ٧٤

[٣] د. محمد كامل حسين ، طائفة الدروز ، ص ١٢٦ (مرجع سابق)

مناقشة موقف الأمير شكيب أرسلان الكلامى من فرقة (الدروز) ، فى باب الآراء الكلاميه عند الامير شكيب أرسلان .

غير أننا نرى من خلال دراستنا لفكر الأمير شكيب أرسلان أنه كان - كما أكد الشيخ الشرباصى - سنيا فى عقيدته ، وفى فهمه للإسلام ، وفى حرصه وغيرته على القرآن الكريم ، ونبى الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى دفاعه عن اللغة العربية لغة القرآن، وفى إيمانه الراسخ بأن أسباب التقدم والرقى فى العالم الاسلامى كلها محصوره فى التمسك بمبادىء الإسلام ، وإقامة شريعته ، وفى جمع كلمة الأمة الإسلامية .

يقول شكيب أرسلان " إن أسباب الإرتقاء كانت عائده فى مجملها إلى الديانه الاسلامية ... فالقرآن قد أنشأ إذاً العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى إحدى اليدين والكتاب فى الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون فى الأرض بطولها وعرضها " [١].

هذه هى منزلة القرآن فى فكر الأمير شكيب أرسلانوفى عقيدته وسنظل نجده هو القاعدة التى ينطلق منها دائماً فى آراءه الكلامية والفلسفية وفى فكره السياسى .

ويتجلى فهم الأمير شكيب أرسلان للعقيده من خلال احتفاله بالدعوة (الوهابية) وتعريفه لها بأنها حركة إنابة إلى العقيدة الحق ، وذلك فى تعليقاته على فصل اليقظة الإسلامية فى كتاب (حاضر العالم الاسلامى) ، يقول شكيب " لاينكر أن الوهابية هى نهضة فى الإسلام عظيمة ممتدة فى أكثر بلاد العرب وفى الهند .... ولكن المقرر أنها حركة إنابة إلى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح واقتفاء أثر الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ، ونبذ الخرافات والبدع ، وحظر الإستغاثة بغير الله، ومنع التمسح بالقبور والتعبد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف ، ويلقب الوهابيون أنفسهم سلفيين ،وأكثر إعتمادهم فى الاجتهاد على الامام أحمدبن حنبل ، والإمام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية " [٢].

ولقد مر بنا أن الدروز ينقسمون من الناحية الدينية الى عقال وأجاويد أى الذين لهم الحق فى معرفة شىء من العقيدة السرية ، ويجعلون لرجال الدين زياً خاصاً بهم ، والقسم الثانى

---

[١] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ .....ص ٤١

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الإسلامى ، حـ ١ ص ٢٦٤

هم الجهال ..... الخ .

وشكيب أرسلان ينكر كل هذا ويرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم (صاحب الرسالة) " كره أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالإسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية مَن من المسلمين يتولى القيام بالوظائف الدينية ، على حدما هو الأمر فى النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأى مسلم يستطيع أن يقوم فى المصلين إماماً " [١].

ويحذر الأمير من البدع وإن حسنت نية أصحابها ، ومن تقليد أتباع الأديان الأخرى فى طقوسهم وأزيائهم التى تخالف روح الإسلام ن فيقول :<< كنت يوماً فى المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ زيوربك مدير المذاهب فى الأستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم فى ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جميعهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأنهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيها ماليس فى الإسلام من الرتب الدينية والدرجات الكنسية ، وذلك عندما يدخلون إلى معابدهم ، وهم لايلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الإسلام ....." [٢].

ويستمر الأمير فى بيان ماوقع فى نفسه من إنكار هذة العادة، التى ينكرها من كان يفهم روح الإسلام جيداً [٣]، ثم يستشهد بالحديث الشريف :" لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لودخلوا جحر ضب لدخلتموه " [٤].

والحق أن الدارس لفكر الأمير من خلال مؤلفاته يلمس أن قلب الأمير شكيب قد وسع العالم الإسلامى كله حبا وإكبارا وتقديرا ، ويشعر في كتبه أن روحه الإسلامية العربية ، لاتفرق بين مذهب ومذهب ولا بين أمة وأمة ، لذلك فقد جهد الأمير جهدا كبيرا في دعوة المسلمين

---

[١] المرجع السابق ، ص ٢٧٠

[٢]، [٣]، [٤] المرجع السابق ص ٢٧٢ (هامش)

في الشرق الي الإتحاد والتضامن في مواجهة الغرب الأوربي ، ويدعو المسلمين لنبذ أسباب الفرقة والتناحر التي زرعها الغرب فيما بينهم ، فيقول :" فبعد أن تقرر وجود هذا التضامن المتين بين جميع الاوروبيين في وجه الاسلام والشرق بأسره ، لاعجب أن يكون هناك تضامن بين الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ،لاسيما أن بين هؤلاء رابطة دينية " [١].

ويقول أيضا دفاعا عن القضايا العربية الاسلامية : " واذا كان عمال فرنسة منذ اول احتلالهم لسوريا أى منذ ١٩١٨ الي ساعة تحرير الأمير للسطور ، لم يفتروا يوما واحدا عن تأريث الضغائن الدينية بين المسلمين والنصارى في سوريا ، وبين النصارى والدروز في لبنان بعد أن كانت هذه الضغائن والذحول قد سكنت وتلاشت تقريبا ، فتجد سورية ولبنان اليوم في أسوء حال من هذه الجهة مما بذرته يد الاحتلال ، التي ظنت أنها لا تمتد الا علي بساط شقاق ، ولا تتمكن الا من خلال فتنة " [٢] .

من النصين السابقين يظهر مدى حرص الآمير علي وحدة الصف العربي الاسلامي وحرصه علي حث ألآمة علي نبذ الخلافات والمنازعات المدسوسة بينهم ليقف المسلمون صفا واحدا في مواجهة عدوهم جميعاً المتربص بهم . ومن هذا المنطلق دافع الآمير عن عقيدة الدروز وارتباطها بالعقيدة الإسلامية ليحفظ للمسلمين وحدتهم في مواجهة عدوهم المشترك . وهذا ما أثبته الأمير في مقاله نفسه بقوله :

" ولهذا أنا لاأفهم : ماوجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز ومافيها من مخالفة الاسلام ، في وقت يسفك فيه الدروز دماءهم باسراف في الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها للمسلمين ، لآن الدروز في سوريا ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون عن المليونين " [٣]. وهذه الفقرة الأخيرة تبين بجلاء السبب الأساسي الذى كتب من أجله مدافعا عن الدروز ، بدافع من حرصه على الا ينشغل المسلمون بمعارك جانبية فيما بينهم تزيد من ضعفهم في مواجهة الأعداء الحقيقين الذين يسعون بكل طاقتهم لزرع الشقاق بين فرق المسلمين المختلفة

---

[١] حاضر العالم الاسلامي جـ ٢ ص ٣٢٨

[٢] المصدر نفسه جـ ٢ ص ٣٤٠

[٣] مجلة الشورى - عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥.

لأنهم علموا أنهم لايتمكنون الامن خلال فتنة .

والدارس لمقالات الأمير وكتبه يجد أن الحرص علي جمع فرق الاسلام جميعا تحت لواء واحد كان هدفه دائما مع اعترافه بوجود انحرافات شديدة عند بعض الفرق عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولم يكن يطبق هذا علي الدروز وحدهم لأنهم قومه بل كان حريصا علي اتباعه مع فرق وقبائل وشعوب إسلامية آخرى . فعندما ذكر مافعله الفرنسيون في لبنان من بث الفرقة بين أبنائه ، تذكر مافعلوه أيضا في االجزائر من زرع للشقاق بين العرب والبربر فقال " وليس بصحيح أنه لما دخل الفرنسين الجزائر كان فيها ٨٠٠ ألف بربرى غير مسلمين ، فالإسلام دين البربر قاطبة منذ أكثر من ألف سنة ، واللسان العربى هم يعرفونه جميعاً إلا ماندر من جهلائهم . وقد اجتهد عمال فرنسا كثيرا في فتنتهم في دينهم ، ووفقوا إلى بعض ماقصدوه وذلك بأن أدخلوا عليهم الشكوك في عقائدهم ، فأصبح بعضهم معطلين أو ملحدين ، ولكنهم لم يتمكنوا من نقلهم من الاسلام الي النصرانية [١] .

وعندما يتحدث عن فتح الترك القسطنطينية ويصل به الحديث الى (البردة النبوية الشريفة) التى أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بني عباس ، وقد أعد لها لترك بناء خاصا بها ، وكان السلاطين يحتفلون بزياراتها فى وسط رمضان احتفالا غريبا يصفه الأمير شكيب وقد حضره مراراً فيقول : " كان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذى فيه السفط الذى فيه البرده وهم يقولون لها " خرقت سعادت " . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحدا بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحنى ، ويقبل الصندوق من أعلاه ". ويستمر الأمير في وصف هذا الاحتفال الذى لم ينزل الله به من سلطان ثم يعلق علي هذا بقوله :

" لعل اخواننا الواهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الاصونة التي فيها مما يستحب شرعا الا أنه ليس شيء من هذه الامور منويا به غير مجرد

---

[١] حاضر العالم الاسلامى جـ ٢ ص ٢٤٠

التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى" [١] .

ومن دفاع الأمير شكيب عن البربر والاتراك يتبين نزعة الأمير الي الوحدة الاسلامية وحرصه علي أن ينأى المسلمون بأنفسهم وباخوانهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهى الإسباب مع اعترافه بوجود إنحرافات عن جوهر العقيدة الصافية وهو في موقفه هذا يقرر قول الشيخ محمد عبده أنه : " اذا صدر قول يحتمل كفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد، حمل علي الايمان ولايجوز حمله علي الكفر" [٢] .

ولقد حصر الأمير شكيب أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي في تمسكهم بالديانة الاسلامية التي جمعت العرب بعد فرقة ، وبعدهم عن الخلاف الذى عاد فدب بينهم في أواخر خلافة عثمان وفي خلافة على فعطل تقدمهم وأوقف فتوحاتهم .

يقول الأمير عن أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي : " ان أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها الي الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديدا في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهدايتها من الفرقة الي الوحدة ، وهن الجاهلية الي المدنية ، ومن القسوة الي الرحمة ، ومن عبادة الأصنام الي عبادة الواحد الآحد ، وتبدلوا بأرواحهم ألاولي ارواحا جديدة ، صيرتهم الي ماصاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذى عاد فدب بينهم منذ اواخر خلافة عثمان وفي خلافة على رضى الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف " [٣] .

وهكذا يرى الأمير في الخلاف بين المسلمين الآفة التي فرقت جمعهم ، وأوقفت تقدمهم في الماضى ، ويرى أن مستقبل العالم الاسلامى مرهون باتحاده اتحادا تاما ، حتي يمكنهم الدفاع عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء .

---

[١] حاضر العالم الإسلامي جـ ١ ص ٢٣١ ، مع ملاحظة أن هذا الاحتفال ولن كان ابتداعا في الدين الا أنه لايعد من الكفر .

[٢] الاسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده ص ٥٧

[٣] شكيب أرسلان لماذا تأخر المسلمون ص ٤١

"جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامي يجب عليه أن يتحد اتحادا دفاعيا تاما ، مستمسك الأطراف وثيقة العرى ، يستطيع بذلك الذياد عن كيانه ، ووقاية نفسه من الفناء المقبل " [١] فلا عجب أن نجده حريصا علي أن يظل الدروز – وهم أهله – متمسكين بانتمائهم الاسلامي ، وأن يظل المسلمون ينظرون إليهم علي أنهم اخوان لهم في الدين والنسب والوطن فالجامعة الاسلاميةمن وجهة نظره تهدف الي هدف سياسي الي حد بعيد ، ولذلك فهي لاتتوجه بالعداء الي الفرق الدينية ألاخرى ، وان خرجت من الاسلام ، وانما الي استعمار الفرنجة تجديدا . يقول الأمير "فالجامعة الاسلامية ليس معناها في نظرهم أن يقوم المسلمون في مشارق الآرض ومغاربها ليؤلفوا كتلة واحدة ليقاتلوا كل من هو غير مسلم "فالجامعة الاسلامية هي أكثر من ذلك ، فهي تجمع المسلمين الي غير المسلمين في اطار الغايات الواحدة هي تقدم للمشرقين ، وليس للمسلمين فحسب ، يعتصمون بها فتغدو اداة توحد للشعوب المقهورة [٢] .

هذه الأسباب السياسية والدينية التي دفعت الآمير الي الحرص علي الدفاع عن نسبه واسرته وقومه والطائفة التي ينتسب اليها ، ولكن تبقي أسباب أخلاقية أخرى دفعت الأمير الي الحرص على إثبات نسبه ونشره في سجل بعد توثيقه من الثقات من العلماء والشيوخ ، بل ولم يدخر جهدا في تتبع بمصادر التاريخ ومناقشتها لينتهي الي مثل الثقة في بيان تاريخه وتاريخ أهله ، ثم ختمه بتأكيد الثقة فيما انتهي اليه أمام القارىء فقال : " والقارىء يرى أننا تحرينا جهد الاستطاعة , وعرضنا الروايات والآراء ، ولم يكن استقصاؤنا في هذا البحث الا لآجل تمحيص ناحية من نواحي التاريخ العربي هي أخبار عرب لبنان والسواحل الشامية من زمن التاريخ وكذلك حريا علي شنشنة العرب في حفظ الأنساب والتنقيب عن أخبار أجدادهم والناس مأمونون علي انسابهم ، وفوق كل ذى علم عليم " [٣] .

هكذا يحرص الآمير أشد الحرص علي حفظ نسبه ولايترك مناسبة الا ويشير فيها الي مآثر أجداده في التاريخ ومفاخر أسرته كمثل قوله عند ذكره "للأمير جمال الدين الأرسلاني"

---

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم الاسلامي ص ٣٠٧ ج ١

[٢] شكيب أرسلان مقدمات الفكر السياسي للدكتور محمد شفيق ص ١٦٣

[٣] شكيب أرسلان ، روض الشفيق فى الجزل الرقيق ، ص ٢٦٢

- في تعليقاته علي ابن خلدون وانحيازه مع أمراء لبنان إلى جانب السلطان سليم العثماني في حربه ضد الملك الأشرف قلنصوه الغوري ، " وهو جدنا علي عمود النسب " [١] .

وفي مقال للأمير عن الإمام الشيخ محمد عبده يعدد فيها مزايا الشيخ ورقة طبعه وتقززه عن سماع الألفاظ النابية وأسماء العورات لاينسى أن يمتدح أخلاق الدروز وعفة ألسنتهم ، فقال متحدثا عن الشيخ : " وكان أحد أصدقائه الأجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولايذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومرارا صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة ، التي تغلب علي بعض الألسنة . فكان في هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فانديك الامريكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة ، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جدا هذه الميزة فيهم ، ويعجب بآدابهم في مجالسهم حتي آداب العوام منهم " [٢] .

والأمير شكيب لايجد في كثرة حديثه عن أسرته ونسبها ومفاخرها أى غضاضة ، لأن الاعتزاز بالأنساب وحفظها في رأيه ضرورة أخلاقية .

ويرى الأمير شكيب أرسلان أن حفظ الأنساب من الفضائل الإجتماعية التي لا يجوز أن تخلو منها هيئة بشرية راقية ، وهو ضروري لأجل الدول الراقية المهذبة التي تريد أن تعرف أصول الشعوب التي إشتملت عليها ممالكها ، والخصائص التي عرف بها كل من هذه الشعوب بما يكون أعون لها على تهذيبها وحسن إدارتها .

ويرى الأمير في الحرص على النسب حرص على توارث الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة " فمن الحقائق العلمية الثابتة المقررة عند الأطباء والحكماء ، كما هي مقررة عند الأدباء والشعراء أن الأخلاق والميول والنزعات المختلفة تتوارث كما تتوارث الأمراض والأعراض الصحية ، والدماء الجارية في العروق " [٣] . فكان لابد من معرفة الأنساب " حتى يسعى كل فريق في إصلاح نوعه بطريق الترقية والتهذيب ضمن دائرته الدموية بحسب إستعدادها الفطري ، وهذه الإستعدادت أحسن دليل عليها هو علم الأنساب " [٤] .

---

[١] تاريخ ابن خلدون،ملحق الجزء الأول ص ١٧٥ المطبعة الرحمانية بمصرسنة ١٩٣٦ م

[٢] تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٤٠٦

[٣] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ص ٣

[٤] المصدر السابق ص ٤

ولا ينسى الأمير أن يشير إلى الجانب السلبي من المبالغة والإفراط والغلو في إعتبار الأنساب والإعتزاز بشرف الأحساب وما يثيره ذلك من فتن وانقسامات وعداوات بين أبناء الأمة الواحدة تصدع وحدتهم وتفرق جمعهم كما تفعل العصبيات الموروثة بين العرب قبل الإسلام وبعده ، " فكما أن الأنساب كانت تثير فيهم الحمية والنخوة ، وتبعث روح التنافس الحافز لهم على طلب المجد ؛ كانت تثير بينهم أيضاً العداوات والفتن التي تصدع وحدتهم وتخمد في النهاية جمرتهم ، فأضرت من حيث نفعت . ولقد أجمع المؤرخون واتفق علماء الاجتماع ، أن سبب سقوط سلطنة العرب هو طبيعة هذه الأمة في الانقسام والانفراد ، وغرامها في منافسة بعضها بعضاً " [١] .

غير أن الأمير يعود فيقرر أن الاعتزاز بالنسب إذا لم يؤد إلى الانقسام عمل كريم وسنة حميدة ، فيقول : " ولولا آفة الإنقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التي يتنافس بها ، ويتمكن بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع إختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها " [٢] .

والأمير في تقديره لمكانة النسب وأثره في توارث الفضائل يسير على نهج أستاذه الإمام محمد عبده الذي كان يؤكد أن الإسلام لم يهمل شأن النسب ، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب ، بل طلب العدل في الأمرين ، (لأن الإسلام جاء والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم وأشدهم حرصاً على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الإعتزاز بشرف الأحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئاً يساوي شرف النسب . وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه إلى رتبة شريف بنسبه ، وإن كان خاملاً في نفسه غير شئ في عمله) " [٣] .

(فجاء الدين الإسلامي ينكر الإفراط والغلو في إعتبار الأنساب ، كما أنكر ذلك في كل شئ حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقال صلى الله عليه وسلم ((إئتوني بأعمالكم ولا تأتوني بأنسابكم)) ليدل على أن النسب وحده ليس بالشئ يرفع ويخفض ولكن المعول عليه ، وما يصح أن يرجع الكرم إليه ، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه فإن وافق ذلك نسباً عالياً وحسباً تالداً كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم وإلا فلن

---

[١] تاريخ ابن خلدون،ملحق الجزء الأول ص ١٧

[٢] تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ١٧

[٣] تاريخ الأستاذ الإمام ، الجزء الأول ص ١٧

يبخس العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الإلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم ، فجعلهم بذاتهم أصولاً للكرام وأدواحاً للمجد بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة ، ووفقهم للأعمال الصالحة ، فمنهم يبتدئ الحسب ، وإليهم في القرون المستقبلة يرجع النسب [١] .

ثم يقول الشيخ الإمام : (هذا ما أراده الإسلام وما دعا إليه ولكنه مع ذلك أمر برعاية النسب إلى الآباء ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والإلتحام بالأدعياء وفرض على المؤمنين أن يدعوهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن إندرجوا فيهم ، وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما يقصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن أبي طالب أن يعهد بجلائل الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الأحساب مظاهراً في أعمال الأشخاص وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر إليها " [٢] .

هذه مكانة الأنساب في الإسلام كما يقررها الشيخ الإمام وهي مكانة جليلة وسنة من سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الأخلاق والغرائز ، غير أن المسلمين هم الذين أهملوا هذه السنة وقلبوا مقاصد الإسلام العالية فيها إلى أضدادها حتى سقطت منزلة النسب في نفوسهم ، وعاندوا بذلك سنة من أعظم سنن الله في خلقه ، (وإن ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الأبناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية) [٣] .

وهذا ماأكده الأمير شكيب أرسلان وحث على حفظ الأنساب فى المجمعات الاسلامية لاليحقق أصحابها مكاسب مادية ، ولاليكتسبوا بها مكانة أدبية ، وإنما ليحققوا بها هدفاً أعلى وأرقى من كل هذا هو توارث الأخلاق الفاضلة وترقية المجتمعات الإسلامية بحفظ أصالتها ، وهذا هو السبب الذى يرومه من دعوته لحفظ الأنساب كما ذكره بنفسه فى قوله: " ونحن لو نظرنا إلى السبب فى حفظ النسب لانجده منحصرا فى معرفة التاريخ ولافى الامتيازات المادية التى يحوزها أصحاب النسب فى العادة ، ولكن هناك غرض آخر أعلى من ذا وذا ، وهو توارث الأخلاق التى تهتف بالفضائل ، والافعال المجيدة ، وتزكى الأنفس .

---

[١] تاريخ ابن خلدون،ملحق الجزء الأول ص ١٧

[٢] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام ص ١٧

[٣] المرجع السابق ص ١٨

فمن المعلوم أن أصل البيوتات الشريفة هو أن يبرع أحد الناس على أقرانه ، ويبذ أبناء زمانه بطبيعة ممتازة فى نفسه قد تكون أسبابها النفسية مجهولة ، وإنما تظهر آثارها فى أفعاله فيمتاز بين قومه وتحصل له رئاسة وسؤدد ، ويشيع ذكره ويرتفع شأنه ، وتتمنى الحوامل أن تلد مثله ، وهذا ما يقال له المجد الطريف وبعد ذلك إذا أعقب نسالا اجتهد نسله ان يقتدوا به بقدر الإمكان ، حتى يمتازوا بالأخلاق التى امتاز بها أبوهم ، ويحوزوا مثلما حازه من الشرف والسؤدد ، وتعب رهطهم فى تقوية هذه الروح فيهم طمعا فى استبقاء هذه الغرائز التى أورثهم إياها سلفهم وهى التى تغريهم بالفضائل ، وتبعدهم عن الرزائل ، وترفع بهم عن سفاسف الأمور ويقال لهذا المجد التليد [١] .

أثر الوراثة فى التربية

يبين الأمير أن صلاح النسب وأصالة أهل البيت تحمل أبناء الاسرة الكريمة على تجنب كل ما يشين حتى أن الناشىء من أهل تلك البيوتات العريقة فى حسبها ونسبها يتجنب بطبعه كل عمل خسيس حتى لايسئ إلى سمعة بيته وما كان لأسلافه من مجد وحسب ، فتكون نفسه بذلك مستعدة ومهيئه لتكوين الملكة الصالحة ، وإذا وجد التربية الحسنة أسرعت بتكوين تلك الملكة وتزكيتها ، أما من شذ عن هذه القاعدة فإن " اول ما يقرع به الناس أحد أبناء البيوتات الكريمه إذا أقدم على عمل خسيس ، ويهيبون به إلى التوبة منه ، أن يقول له : أفلست انت ابن فلان ؟ أو من آل فلان ؟ أيجمل بك ان تفعل كل ماهو كذا وكذا !! فماذا تركت للسوقة والطغام ؟ وأشباه هذه الاقوال التى تدل على دلالة واضحة على ان الأصالة مفروض فيها أن تقترن بالنبالة ، وبعبارة آخرى أن الأصيل فى نسبه ينبغى أن يكون فاضلاً فى عمله ، بارعاً بأدبه ، وما جاء على خلاف هذه القاعدة يعتبر شاذاً " [٢] . فالأصل الكريم قد يحمل الناشئ على اتباع الخلق القويم فإن وجد معه التربية الحسنة فإنها تمهد السبيل وتسرع بتكوين الملكة الصالحة فى النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق وليس له سلف فيها ، وان كانت التربية رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده" [٣]

---

[١] تاريخ ابن خلدون،ملحق الجزء الأول لشكيب أرسلان ص ١٨

[٢] المرجع السابق ص ١٨

[٣] الشيخ محمد عبده عن تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ص ١٨

"وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه فإن كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال وإن كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة فى نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم يرميه القدر من أول نشأته من قسى الحاجة فيأخذ يكلف نفسه ماليس فى استعدادها ويحملها على معاطاة ملايطيق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثالا وهو ليس من أهلها " [١] .

ثم يعود الأمير فيقرر مؤكداً على الإرتباط الوثيق بين حفظ الأنساب والأخلاق فيقول : "فإذا تقرر عندنا هذا ، تقرر أن حفظ الأنساب هو عبارة عن حفظ الفضائل وإمتاع المجتمع بها . ومتى كثرت الفضائل في المجتمع ترقت الأمة وعرجت فى سلم النجاح ، وأصبحت أمة عزيزة غالية ، لأن الأخلاق الفاضلة هى الأساس الذى يبنى عليه كيان الأمم " [٢] .

"وبالاجمال إصلاح الأجناس بالتزاوج ، وبالتربية ، وبالتغذية ، سواء كان فى الآدميين أو كان فى الطيور الداجنة ، يتوقف على حفظ الأنساب ، والعناية بعتقها . ولايزال الحديث الشريف : (اطلبوا كرام المناكح فانها مدارج الشرف) من أصدق القواعد العلمية ، والحقائق العالمية " [٣] .

من أجل هذا وغيره عنى شكيب بإطالة الحديث عن نسبه وأسرته وأجداده ، وبذل جهداً كبيراً فى تحقيق هذا النسب وإبراز النابغين والأبطال من جدوده ، ومن أجل هذا دافع عن طائفة الدرزية وكان يحتفل بكل مدح لأخلاقهم ويبرزه ويشير إليه كاحتفاله بقول شوقى فى الدروز :

وما كان الدروز قبيل شر ... وإن أخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة ، وقراة ضيف ... كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل أشم له شعاف ... موارد فى السحاب الجون بلق
لكل لبوءة ولكل شبل ... نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئا ... فكل جهاته شرف وخلق

---

[١] الشيخ محمد عبده ، تاريخ الأستاذ الإمام ـ الجزء الأول / محمد رشيد رضا ص ١٨

[٢] تاريخ بن خلدون ـ ملحق الجزء الأول ص ١٨

[٣] المرجع السابق ص ١٨

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : "قال شوقى هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولا لم ينكره أحد عليه ، لأن الاجماع واقع على اتصاف بنى معروف [١] بهذه الخلال التى عرفها شوقى فيهم ، إما من التاريخ ، وإما فى أثناء قدماته إلى الشام وإما فى الأثنين معاً " [٢] .

---

[١] سأل سائل عن سبب تسمية الدروز بنى معروف فأجابت مجلة الهلال: " عرفوا بهذا اللقب منذ القديم لمحض اشتهارهم بإسداء المعروف ، أى الجميل " مجلة الهلال اكتوبر ١٩١٥ ص ٦٥

[٢] كتاب شوقى ، تأليف شكيب أرسلان ص ٢٥٨

الفصل الثالث

لماذا نعتبره مفكراً إسلامياً

تمهيد :

في منتصف القرن التاسع عشرشهد العالم الإسلامي منعطفاً خطيراً في تاريخه ، فقد دب الضعف إلى الدولة العثمانية التي كانت حاجزاً منيعاً لفترة من الزمان أمام الأطماع الغربية ، وقد دام الصراع بين الترك والأوربيين فترة من الزمان حتي ضعف الإمبراطورية العثمانية [١] فاستطاع الغرب أن يتسلل من جديد إلي البلاد العربية [٢] حتى تمكن من طرد الأتراك من الولايات العديدة ، وفرض الاحتلال علي الجزء الأكبر من العالم الإسلامي عامة والبلاد العربية خاصة .والحقيقة تؤكد أن الغرب كان يستعد عدة قرون بعد هزيمته في الحرب الصليبية و تأثره بالحضارة العربية لبعث نهضة علمية جديثة في بلاده كي يتمكن من الانقضاض علي الشرق الإسلامي انقضاضاً ساحقاً ، ولكن ظلت الذكريات الدائمة في مخيلة العسكريين عن التاريخ العسكري البطولي للإسلام " هي التى أبقت الغربيين حذرين من الهجوم – حتى القرن التاسع عشر – وأبقت المسلمين راضين مسرورين و التجربة التى بدأت تضعف هذا الرضى عند المسلمين كانت فى تتابع الهزائم العسكرية للإمبراطورية العثمانية و القوي الإسلامية الأخري علي يد خصوم مسلحين بالأسلحة الغربية و مزودة بالعلم و التقنية اللذين هما عصب الفن الحربي عند الغرب " [٣] .

---

[١] بلغ مجموع مداخيل السلطنة سنة ١٨٧٥م ٣٨٠ مليون فرنك يتحتم عليها ان تدفع منها ٣٠٠ مليون فرنك لتسديد قروضها مما ترتب عليه ان يعلن الباب العالى افلاسه فى ٦ تشرين الأول. عن لوتسكى، تاريخ الأقطار العربية، ص٣٧٦.

[٢] فى سنة١٨٦٧ صدر قانون سمح بموجبه السلطان العثمانى للأجانب بالتملك لأول مرة بالسلطنة عن / فليب حتى ، لبنان فى التاريخ ص٥٤٠.

[٣] أرنولد توينبى ، الاسلام والغرب والمستقبل ص١٩ عن: (فلسفة الاستشراق) د. أحمد سحايلوفتش طبعة دار المعارف ص١١٥

وأمام التراجع العثماني السياسي انفتح الطريق أمام الغزوة الأوربية ، وما أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي - منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - حتي ابتدأ يعمل علي تخلف المسلمين ، وعلي تنفيس الحقد الصليبي [١] .

وليس له هنا طريق آخر لتحقيق هذه الغاية، سوى تناول (مادة التوجيه) المحليه وجعلها غير صالحة ... ولم يكن هناك فى توجيه الشرق الإسلامى سوى : الإسلام ، والتراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون فى شرح إسلامهم [٢] .

وهكذا أصبحت سيطرة الغرب على الشرق الإسلامى قوة هدامة تشغل مكانا خطيراً فى تطوره وتزرع فى نفوس أبنائه بذور الشك فى دينه والتنكر لقيمه ومثله العليا .

لقد أدرك الغرب كمون القوة فى الدين الإسلامى رغم الهزيمة السياسيه والانحدار الحضارى ، وجمود الحركة فى مجتمعاته ، وذلك أن فرض الغلبة بما هى تعبير عن استقرار السيطرة وضمانها ، قد تطلب ليس فقط تصفية القوة الظاهرة ، وإنما أيضا التوغل فى عمق الإسلام لضرب القوة الكامنة ، واستلزم الأمر استحداث منهج جديد لايتظر إلى الإسلام كماضٍ حضارى متفوق أو حاضر مهزوم ، بل كتهديد كامن لن يطمئن الغرب إلا بعد التخلص منه .

واتخذ الغرب الاستعمارى وسائله فى محاولة إضعاف المسلمين فى إسلامهم، وهذه الوسائل تنحصر فى توجيه الفكر الإسلامى نحو تحقيق هذه الغاية. وقد برز هذا التوجيه فى صورتين تنم كلتاهما عن هذه الغاية :

الصورة الأولى : قيام بعض مفكرى المسلمين بحركة تقدمية فى الإسلام : تبغى تقرير سلطة المستعمر وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية. أو بعبارة أخرى تبغى عدم تحديه ومعارضته ، سواء فى مباشرة سلطته على المسلمين، أو فى إدخاله مايسميه بنظم الإصلاح الحديثة بينهم [٣] . وهم يعبرون بذلك عن قبول تام بغلبة الغرب ويتعاملون معها كأمر واقع ومستقبل حتمى .

---

[١] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص١٧ مكتبة وهبة

[٢] د. محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٨

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٨

الصورة الثانية : قيام بعض الغربيين بإبراز الخلافات المذهبية وتأكيد الفجوات والثغرات، بين طوائف المسلمين وشعوبهم، من الوجهة السعوبية أو الجغرافية أو نظام الحكم ... مع شرح كثير من مبادئ الاسلام شرحا يشوهها وينحرف بها عن أهدافها الأصلية [١] وذلك كله بالاضافة إلى تمجيد القيم المسيحية والحضارة الغربية ، والنظام السياسى، والسلوك الفردى للشعوب الغربية [٢] .

حركة المقاومة للاستعمار الغربى فى الفكر الاسلامى

وفى مقابل هاتين الصورتين : برز اتجاه إسلامى فكرى آخر وهو حركة المقاومة للاستعمار الغربى : سواء فى مظهره السياسى أو فيما يستبطنه ويخفيه من الهجوم على الإسلام واضعاف المسلمين . وهذا اتجاه يعتبر كرد فعل مباشر لتوجيه الاستعمار الغربى للتفكير الإسلامى فى صورتيه السابقتين [٣] .

ويعكس هذا الاتجاه مجاهرة دائمة رافضة لمضمون التغريب وكاشفة لأقنعته، وهى حرب معلنة ضد عصبية الغرب (الغالب) المتفجرة حينا والمختبئة وراء لغة مهذبة أحيانا أخرى .

وبينما يساعد الإتجاه المتغرب على استمرار الغلبة للغرب بوصفه دعامة داخلية لها، انطلق أصحاب الاتجاه الفكرى الإسلامى المقاوم للإستعمار الغربي في عمل دؤوب وتعصب للإسلام كأصل لهويتهم، وعدم قبولهم بالأمر الواقع، ولم ينبهروا بالتقدم العلمى الغربى إلى درجة تدفعهم إلى التخلى عن الغايات التى حددها الإسلام للعلم والحضارة .

وتتضح أبعاد هذا الموقف فى ملاحظة الأفغانى لمعانى المدنية القائمة جوهرياً على علم متناقض مع الألوهية، فقد قال فى خاطرته : " فلنأخذ من ذكرتم من الأمم المتمدنة، ومكتسباتهم العلمية، وما صنعوه، وعملوه، وكسبوه، وربحوه، وما ترتب على ذلك وماحصل من المنافع والفوائد للبشر من وراء تلك المكتسبات، والمدنية، والثروة، ثم نعدد مارأينا .

هل رأينا غير مدن كبيرة، وأبنية شامخة، وقصور مزخرفة، ومعامل ينسج ويصنع فيها القطن والحرير .. .. واحتكار تجارات أتت لهم بثروات، وكنوز ؟ .

---

[١] ، [٢] ، [٣] د . محمد البهى ، الفكر الإسلامى الحديث ص ٢٨

ثم هل غير التفنن باختراع المدافع المريعة، والمدمرات، والقذائف وباقى المخربات القاتلات للإنسان، تتبارى تلك الأمم الراقية المتمدنة اليوم ؟ .

ثم لوجمعنا كل مافى ذلك من المكتسبات العلمية، ومافى مدنية تلك الأمم من خير، وضاعفناه، أضعافا مضاعفة، ووضعناه فى كفة ميزان ووضعنا فى الكفة الأخرى الحروب وويلاتها هى التى تعلو، وتفوز. فالرقى، والعلم، والتمدن على ذلك النحو وفى تلك النتيجة إن هو إلاجهل محض، وهمجية صرفة وغاية التوحش " [١] .

ويعبر الأمير شكيب أرسلان عن رفض أصحاب هذا الاتجاه (الفكرى الإسلامى المقاوم للاستعمار الغربى) أن يكون الدين ثمنا للتقدم، ويتسائل عن أسباب التناقض المفتعل بين المدنية والإسلام فيقول : " أوربا ترقت هذا الترقى المادى كله وبقيت متمسكة بديانة أقدم من الإسلام بأكثر من ستمائة سنة . وكذلك اليابان ترقت هذا الترقى نفسه وهي معتصمة أشد الإعتصام بعقائد وتقاليد هي أقدم عهداً من الديانة المسيحية نفسها بقرون. فياليت شعرى ، لماذا المسلمون وحدهم هم الذين لايمكنهم الرقى إلا بخلع الدين الإسلامى، كما يزعم بعض اعداء هذا الدين ؟ " [٢] .

وكان لابد لهذا الإتجاه أن ينقد الاتجاه الآخر المقابل له ـ المتغرب والغربى ـ وينقد عناصره الفكرية : سواء من الوجهة المنطقية الإنسانية ، أم من الوجهة الإسلامية. وفى الوقت الذى يقوم فيه بالنقد كان لزاما عليه كذلك أن يعرض خطة.عملية لمقاومته، ومقاومة الداعين له والمساعدين على الدعوة إليه [٣] . ولذلك نرى هذا الاذدواج فى الدعوة إلى مقاومته : نرى نقداً نظرياً ، ومنهجاً عملياً [٤] .

عناصر هذا الاتجاه

ومن أبرز زعماء هذا الاتجاه الإسلامى في النصف الثانى من القرن التاسع عشر، الشيخ جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م) الذى ترك أثراً عظيماً فى وعى المتنورين وصياغة أفكارهم فى انحاء كثيرة من الشرق الإسلامى .

---

[١] خاطرات جمال الدين الأفغاني، ص١٣٩ ـ ١٤٠، دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠

[٢] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامى، مج٣ ص٣٧٣ دار الفكر بيروت١٩٧٣

[٣] ، [٤] د. محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث ص٥٩

وعندما يصف جمال الدين الافغانى المسلمين المتغربين يعتبرهم أكثر خطورة على الشرق الإسلامى من الغربيين أنفسهم، وقد أسهب فى تفسير موقفهم وأثره الداخلى.. فيقول فى خاطراته إن ماهو " أشد وطأة على الشرق، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين، وتذليل الصعاب لهم، وتثبيت أقدامهم، هم أولئك الناشئة الذين بمجرد تعليمهم لغة القوم، والتأدب بأسفل آدابهم، يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلموه من اللسان على بسائطه وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات وقراءة السير، ومسير من قطع مراحل من الغربيين فى سبيل الأخذ فى ترقية أمته، بدون أن يسيروا في ذلك غوراً أو يفهمو لتدرجهم معنى . ويعتقد الناشئ الشرقي أن كل الرذائل، ودواعى الحطة ومقومات التقدم إنما هى فى قومه، فيجرى فى تيار غريب من امتهان كل عادة شرقية، ومن كل مشروع وطنى يتصدى له فئة من قومه، أو أصل بلده، ويأنف من الاشتراك فى أى عمل لم يشارك فيه الأجنبى ولو أسماً، ويسارع لتقديس، وتصويب كل خطأ يأتيه الغريب، ويسهل له كل صعب فى مطلبه، ويطلعه على هنات قومه وزلهم، وموقع الضعف منهم، وبالاجمال يكون الآلة القاطعة الفاعلة للغريب فى جسم قومه ، والوسيلة الممكنة من الاستئثار فى البلاد، واستعباد العباد، بدون أن يشعر أنه سيلاقي شر ما يصنع قبل أمته ، وينزل فى تاريخها مع الأدنياء الخائنين . وإذا أحس البعض في شنيع فعلته فإنما يؤثر مصلحته الخاصه ، ونفعه الخسيس المؤقت على صالحه العام مع مجموع من جمعته واياهم الجامعات الكبرى " [١] .

وقد تحدث الشيخ جمال الدين الأفغاني عن أخذ ما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ولكن علي أساس أن يكون ذلك في تلاؤم مع الإسلام، أو لأن الإسلام يدعو إليه [٢] وكان يقول :" إذا لم يبن تقدمنا وتمدننا علي قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه ولايمكننا ان نتخلص من ربقة الانحطاط والتأخر [٣] .

كما حارب المذهب الطبيعي ــ الدهرى ــ الذي انتشر في الهند ١٨٧٩ م ، وانتقده في كتابه "الرد علي الدهريين" وكان يدعو الي "وحدة المسلمين " والي " الاصلاح الدينى" .

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ، دار الحقيقة بيروت

(٢) د.محمد البهي ، الفكر الاسلامى الحديث، ص٢٨

(٣) تاريخ الاستاذ الامام ، رشيد رضا ص٨٢ حـ ١

وقد تجلي ذلك في آثاره ولا سيما(العروة الوثقي) [١] التـى اشترك معه فـي تحريرها الامام محمد عبده (١٨٤٩ـ ١٩٠٥) [٢] (الذى سار فى ذات الطريق الذى سلكه جمال الديـن الافغانى ، فكان واحداً من زعماء مقاومة الاستعمار الغربى ، ومعارضة النفوذ الأجنبى فـي دائرة العالم الاسلامى . وقد استلهم الامام محمد عبده مبادىء الأفغانى العامة وتوسع فـى شرحها وتحقق من مدلولاتها فى ما اختص بالدين والإصلاح الدينى . كما هاجم الاستشـراق مما اضطره إلى الكتابة عن مزايا الإسـلام بالنسبة للمسيحية . ووضـع منهجا تربويا لفهم اسلام القرآن والسنة الصحيحة " وتناول محمد عبده فى جانب الاعتقاد موضوعين رئيسيين :

- تحرير المسلم من عقيدة الجبر مع الابقاء على عقيدة القدر
- وإفهام المسلم بأن عقل الإنسان نعمة من الله يجب ان يتلائـم ويسير جنبا إلـى جنـب مع دين الله، ورسالته للإنسان ، وأن إغفال العقل معناه الغض من هذه النعمة " [٣] .

وإذا كان التراجع العثمانى السياسى قد فتح الباب أمام الغزوة الأوروبية، إلا ان الغـرب قد أثار العالم الإسلامى والعربى باحتلال أراضيه والسيطرة عليه فدفعه بذلك دفعا قويا للقيـام بمراجعة داخلية نقدية [٤] ، وبدأ يسائل نفسه عن ذاته ومكانته ومثله وقيمه ويبحث عن دوره من جديد، وهب المفكرون الإسلاميون للدفاع عن الفكر الإسـلامى ويحـاربون تلك التـرهـات التى ينثرها الغربيون فى المحيـط الإسـلامى وبيـان مـا فيهـا مـن ضـلال ومـاتهدف إليـه مـن تحطيم الأمة العربية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها .

---

[١] أنشئت جريدة العروة الوثقى فى باريس وصدرا لعدد الأول منها فى ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين ورئيس تحريها الأستاذ الأمام ص.٢٨٩ حـ ١

[٢] يقول الأمير شكيب أن الأفكار فى العروة الوثقى للسيد جمال الدين، والعبارة للإمام (تاريخ الأستاذ) حـ ١ ص ٢٨٩

[٣] د.محمد البهى الفكر الإسلامى الحديث... ص١١٨ (مرجع سابق) .

[٤] الواقع يؤكد لنا أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الغربى بأمد طويل ، وبدأت بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلي تجديد الدين والعودة إلى بساطته الأولى ، وإذا كان ابن عبد الوهاب قد ولد سنة ١٧٠٣ وقام بدعوته وهو في سن الأربعين فإن يقظة الفكر العربي تكون قد بدأت قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوروبية بمائة عام على الأقل. (د. أحمد سمايلوفتش - فلسفة الاستشراق - ص١١٦ طبعة دار المعارف) (مرجع سابق)

العوامل المؤثرة فى فكر الأمير شكيب أرسلان

فى هذا الاطار التاريخى، وفى هذا العصر الحافل بالاحداث والوقائع والصراعات السياسية والفكرية والحضارية، نشأ الأمير شكيب أرسلان وتدرجت أفكاره، فقد ولد الأمير فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩م وتوفى فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦. أى أنه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين .

العامل الأول : إتصاله بالإمام محمد عبده والشيخ الأفغاني وتتلمذه عليهما

وكان للاتصال المبكر بين الأمير شكيب أرسلان والشيخ محمد عبده أثر هام فى تشكيل فكر الأمير الشاب منذ أن كان الأمير طالباً فى مدرسة الحكمة ببيروت، وكان عمر الأمير شكيب آنذاك ستة عشر عاما، وألقى قصيدة طويلة فى حفلة أقامتها المدرسة وحضرها الشيخ محمد عبده حيا فيها العرب وأمجادهم والإسلام ومفاخره فصفق له الشيخ الأمام واستبشر به خيرا، وهش للقائه فى مجلسه فانعقدت بين الفتى وبين الشيخ صداقة كبيرة . وتأثر شكيب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ودرس عليه فى "السلطانية"، وتوثقت عرى صداقة متينة بين الإمام وشكيب، فيسمع منه عندما كان منفيا إلى بيروت بعد قمع الحركة العرابية سنة ١٨٨٢ ، واتصل به وتلقى عنه حينما عاد الشيخ إلى مصر [١].

" وكان الشيخ يردد فى مجالسه ماتلقنه على يد جمال الدين الأفغانى من سعى إلى الاصلاح وحب الإسلام، وذود عن كرامته، وتأليف فيه، وعمل له . وكان الإمام لايفتر عن الحديث فى رفع مستوى الأمة وتقويم أخلاقها والنهوض بها نهضة علمية اجتماعية عن سبيل الثقافة والعمل، فى وعى صحيح وفهم عميق لايسير فى تقليد الغرب تقليداً أعمى " .

والدلائل على قوة تأثير الإمام محمد عبده فى تشكيل فكر الأمير كثيرة، فقد تعرف الأمير على فكر الأفغانى أولا من خلال الشيخ الامام فأعجب به ورددد فى كتبه ومقالاته . وقد حث الشيخ على احترام القانون وتحقيق العدالة والمساواة والعمل لاصلاح المسلمين، فعمل شكيب فى نفس الاتجاه .

وتحدث الشيخ الامام عن ابن خلدون فأفاض فى مقدمته وشهد بمالها من محاسن فى

---

[١] حاضر العالم الإسلامي ، شكيب أرسلان جـ ١ ص ٢٨٣

فهم الاجتماع والتاريخ، وذكر أنه كان يحاضر فيها بمدرسة دار العلوم بمصر سنة ١٨٧٨ فشرع شكيب يعنى بابن خلدون ويقلده، ثم علق فيما بعد على تاريخه . والإمام كان وهو فى بيروت يشرح الكتب القديمة أو يعلق عليها، وكذلك فعل شكيب، فنشر الدرة اليتيمة لابن المقفع، ورسائل الصابى، وسيرة الأوزاعى، وغيرها . كما حبب الشيخ الامام إلى اخوانه قراءة الكتب العربية والغربية المعربة فى مختلف فروع الفلسفة والتصوف والتاريخ والاجتماع والسياسة .

ولاقت افكار محمد عبده هوى فى نفس الأمير، ورأى فى فهمه للعقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل إلى حالة لايرضاها له أي مسلم مخلص لإسلامه. وقد عبر الامير عن مبلغ تأثره بالشيخ الإمام وتلقيه عنه فقال : " استاذنا فريد عصره، ووحيد مجده، حجة الإسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف إليه محرر هذه الحواشى فى عهد الطلب، أيام كان هو منفيا فى بيروت على أثر الحادثة العرابية وذلك سنة١٨٨٦، ولازمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ماوسع فتور خاطرى ، واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى، ووجدت فيه الضالة التى كنت أنشدها، والبغية التى كنت أبحث عنها ولا أجدها، ورأيت فى فمه العقيدة الإسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال، وان يقيل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لاتقال. ومازلت بعد أن عاد إلى وطنه مصر إلى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذ به حبل المكاتبة ، وأوقف على رأيه فى أكثر الأمور جزئيها ، وكليها ، وأستطلع منه طلع الأحوال، وهو يبث إلى مالا يبثه إلى غيرى من موانح فكره، وذوات صدره " [١] . ولقد سعى الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ جمال الدين الأفغانى استاذ اساتذه الأمام محمد عبده ـ كما عبر عن ذلك الأمير ـ وأجتمع به في الأستانة سنة ١٨٩٢م بعد أن أتصلت بينه وبين شكيب مكاتبات ومراسالات. ويصف الأمير هذا اللقاء فيقول : "وكنت لما عدت من أوروبا إلى الاستانة سنة ١٨٩٢ ، ذهبت إليه (جمال الدين الافغانى) فى نهار وصولى ، فاستقبلنى براً وترحيباً ولزمته تلك المدة الى أن اضطررت إلى السفر إلى وطنى سورية ، ففارقته آسفاً وأنا أمنى نفسى بالعودة الى الأستانة ،لمشاهدته والاستفادة منه [٢] .

---

[١] شكيب أرسلان حاضر العالم حـ١ ص٢٨٣

[٢] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى حـ٢ ص٢٩٨ مرجع سابق

وسألني مرة عما شاهدته في أوربا وأي نتيجة استخلصتها من حال أولئك القوم، لأنه كان فيلسوفا تاما لايرى الجزئيات إلا من خلال الكليات ، فلما أردت أن أبدي له ما يعن لي في هذا الباب ، وكنت يومئذ في أول شبابي لم أجاوز الثانية والعشرين من العمر ، غلبتني مهابة حكمته وخشيت أن لا أصيب المحز ، فتحوطت لكلامي بشئ من انكسار النفس واستكبار أن يكون مثلي ممن يجوز أن يتكلم بحضرة مثله ؛ فما رأيته إلا نهض وأمسك بيدي وهتف قائلا : " أنا أهنئ أرض الإسلام التي أنبتتك" [١] .

ويحدد الأمير موقع فكر جمال الأفغاني فيقول عنه :" هو الموقظ الأعظم للشرق ، وأن طريقته ستزداد انتشاراً ومبادئه ستطبق في يوم من الأيام الشرق بأجمعه ، .... ومن غريب ضرائب البشر أنهم لايحرصون على آثارعظمائهم في حياتهم معشار ما يحرصون عليها بعد ذهابهم " [٢] .

وقد جمع شكيب بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مجال تأثره البليغ بهما ، وكان يرى الأول أستاذاً للثاني ، فقال : " إننا في حاضر العالم الإسلامي لم نعظم أحداً في رجال الاسلام ماعظمنا المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني أستاذ الشرق عموماً ، وأستاذ أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده " [٣] .

شكل الأفغاني ومحمد عبده إذاً ، عاملاً واحداً من العوامل الأساسية التي أسهمت في تشكيل وصياغة أفكار الأمير حتى كان علماً من أعلام الإصلاح في الإسلام ، وكاتباً مدافعاً عن حوزته في كل بقعة ومكان ، وحلقة أخرى من حلقات مدرسة أطلقها المصلح والفيلسوف جمال الدين الأفغاني .

العامل الثاني : دفاع الأمير عن الفكر الإسلامي في مواجهة الفكر الغربي

أما العامل الثاني الذي أثر في توجهات فكر الأمير فهو مواجهة الفكر الغربي المتمثل في القضايا التي أثارها الإستشراق مما يعد هجوماً على الإسلام والعرب وشخصياتهم ودينهم ولغتهم وفكرهم وثقافتهم وآدابهم .

---

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي جـ٢ ص٢٩٨ مرجع سابق

[٢] شكيب أرسلان ـ حاضر العالم الاسلامي جـ٢ ص٣٠١

[٣] أحمد الشرباصي ـ شكيب أرسلان داعيه العروبة والاسلام ص٧٠

وقد ساهم الأمير بفكره وفعله في مواجهة هذا الهجوم الغربي إلى جانب عدد من العلماء المخلصين والمفكرين الواعين الذين أسهموا بدورهم في الدفاع عما هو إسلامي وعربي حتى ليستطيع المرء أن يعتبر ماأنتجوه خلال مواجهتهم لهذا الهجوم من حيث أسلوبه وغزارته وما فيه من فكر وعمق وثقافة ومنطق أروع ما كتب بالعربية في العصر الحديث

الأمير شكيب أرسلان أحد رواد النهضة و الإصلاح فى العصر الحديث

وكان الأمير شكيب علىاتصال دائم بالمخلصين للعقيدة الاسلامية، والتراث، واللغة،والفكر، والثقافة والأدب من معاصريه أمثال محمد رشيد رضا ، ومحمدكرد على والشيخ مصطفى صبرى ، ومصطفى صادق الرافعى وغيرهم من رجال وزعماء العالم الاسلامى ممن قبلوا مواجهة هذا التحدى الهدام، وجدوا فى مقاومته وبيان مافيه من زيف وضلال ، ومايهدف إليه من تحطيم الأمة الاسلامية والقضاء على معنوياتها ومقاومتها وتجدر الإشارة الى الصداقة التى جمعت بين الأمير شكيب ومحمد رشيد رضا فاتفقا على الهدف المشترك وهو الدفاع عن العرب والإسلام ، والعمل من أجل عزة قومهما وتقدمهم وتوحدهم ، واختلفا فى طريقة الدفاع وأسلوب العمل، ولم يمنعهما هذا الاختلاف من أن يجعلا ايديهما معا فى سبيل المصلحة العامة .

ويربط الأمير شكيب بين استاذه الشيخ محمد عبده وبين الشيخ رشيد رضا ، ويرى أن رشيد من حسنات الأستاذ الإمام الكبرى ويراه الأوّلى بأن يخلف الامام فى الإصلاح الدينى ،يقول شكيب متحدثا عن الشيخ محمد عبده "ومن حسناته الكبرى ،وأياديه التى ملأ بها طباق العالم الاسلامى برا ، أخذه بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا فى نشر مجلة "المنار" التى هى لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجمان أفكاره ،فهى والحق يقال أحسن مجلة ظهرت فى باب الإصلاح الدينى وتطهير الإسلام من شوائب البدع وإعادته سيرته الأولىفى عهد السلف. وتأليفه مع المدينة الحاضرة . كما أن الأستاذ السيد رشيد المشار إليه هو الأولى بأن يخلف الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مشروعه وفقه الله وسدد خطاه " [١] .

---

[١] شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامى جـ ١ ص ٢٨٣

والسيد رشيد رضا هو أول من أطلق على الأمير لقب "أمير البيان" وقدبلغ من تقديره لفكر شكيب أن أرسل إليه أحد تلاميذه وهو الشيخ محمد بسيونى عمران يقترح فيها أن يكتب أمير البيان (**للمنار**) مقالاً بقلمه فى أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر وأسباب قوة غيرهم من الأفرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة ، وقدبنى الشيخ بسيونى اقتراحه هذا على تلك الأسئلة التى صارت مثار شبهة على الدين عند غيرعلمائه .

وبالفعل جاء جواب الأمير من خلال كتابه الشهير " **لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟** " الذى يعتبر بحد ذاته ثورة فى عالم الإسلام وثورة على الغرب نفسه ، وقد جمع الأمير فيه بين براعة المؤمن ومنهجية المؤرخ وحكمة الفيلسوف وحذاقة السياسى ، ونشر الكتاب أولاً فى "المنار" ثم طبع فى كتاب أواخر سنة ١٩٣٠م بمطبعة المنار، وفى أوله مقدمة السيد رشيد رضا يشير فيها إلى الظروف التى أحاطت بتأليف هذا الكتاب بقوله : " اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخى ووليى الأمير شكيب على كتابة شيء مثل هذا المنار ، وأنا الذى أنصح له دائما بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء غيرهم، فأرسلت إليه كتاب الشيخ محمد بسيونى عقب وصوله إلى، فأرجأ الجواب عنه لكثرة الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة إلى أسبانية وقد أثرت فى نفسه مشاهد حضارة قومنا العرب فى الأندلس والمغرب الأقصى، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير شعب البربر فى المغرب تمهيداً لتنصير عرب افريقية المرزونين باستعبادها لهم، كما فعلت أسبانية فى سلفهم فى الأندلس ـ فكتب الجواب منفعلا بهذه المؤثرات، فكان آية من آيات بلاغته وحجة من حجج حكمته " [١] .

ولقد كان إسهام الأمير شكيب أرسلان فى مواجهة تلك التحديات استجابة لحاجة ملحة ، بعد أن تجسدت أزمة المسلمين فى تخلف مادى وعلمى تفاقم شأنه فبات من بين المسلمين من دفعه اليأس وعدم الفهم الصحيح للإسلام إلى تصديق دعاوى الاستعماريين فى تعاملهم مع المسلمين والإسلام لتكريس واقع التابع والمتبوع بمنطق "القدر التاريخى المتعالى الذى خص به الغرب" . لذلك بدأ الأمير شكيب بتحديد أسباب ارتقاء المسلمين الماضى قبل أن يحدد أسباب انحطاطهم فى الحاضر .

---

[١] لماذا تأخر المسلمون ...ص٣٥ .

فرأى أن أسباب أرتقاء المسلمين الماضى كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الإسلامية ، وكان الإيمان العميق بالعقيدة ، الداعية إلى الوحدة لا إلى الانقسام والفرقة ؛ والثائرة على الجهل والجاهلية فى سبيل المدنية والمناهضة للظلم والقسوة وصولا إلى الرحمة، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان من أجل عبادة الإله الواحد الأحد... كان كل ذلك بمثابة الدافع والمحرك فى افتتاح العرب المسلمين لنصف الكرة الأرضية فى نصف قرن [١] .

" فالقرآن قد أنشأ إذاً العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقا جديدا وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى إحدى اليدين والكتاب فى الآخرى يفتحون ويسودون، ويتمكنون فى الأرض بطولها وعرضها " [٢] .

فالدين الإسلامى هو السبب فى إرتقاء المسلمين الماضى الذى نهضوا به وفتحوا وسادوا، فهل بقى هذا السبب فى العرب وتأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين، يجيب الأمير شكيب على ذلك فيؤكد أن المسلمين قد فقدوا السبب الذى ساد به سلفهم وأن حالة التخلف التى وصلوا إليها ناتجةى عن الحقيقة التالية: " لم يبقى من الإيمان إلا إسمه ومن الإسلام إلا رسمه ، إلى غير ذلك مما كان فى صدر الملة وعنجهية الشريعة " [٣] .

فالأمير شكيب يرى أن وعد الله تعالى بنصر المسلمين صريح وباق، والله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، "وإنما المسلمون هم الذين تغيروا" فقضية إنحطاط المسلمين فى العصر الحاضر قضية أخلاقية فى المقام الاول، فالدين لم يتغير وإنما المسلمين هم الذين غيروا ما بأنفسهم فكان من العجب ألا يغير الله ما بهم .

" فأين حالة المسلمين اليوم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة، وإذا فاتت فارسهم الشهادة رغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزيناً كئيباً ، فقد المسلمون اليوم أو أكثرهم هذه الحماسة التى كانت عند آبائهم، وإنما تخلق بها أعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ولقد جد الأمير فى تتبع العلل الأخلاقية التى جردت المسلمين من اسباب الرقى والتقدم وأسلمتهم إلى حالة الإنحطاط والتأخر فيرى أن " من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل، الذى يجعل فيهم من لايميز بين الخمر والخل، فيتقبل السفسطه قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها " [٤] .

---

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ٤١ ، ٤٢ ، ٧٥

"ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص الذى هو أشد خطرا من الجهل البسيط..." [١] . "ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق، بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن، والعزائم التى حمل عليها سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح، والأخلاق فى تكوين الأمم فوق المعارف..." [٢] .

"ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص وظن هؤلاء – إلا من رحم ربك - أن الأمة خلقت لهم أن يفعلوا بها مايشاؤون ..." [٣] .

ويشير الأمير هنا إلى فقدان الأمة الإسلامية لعامل هام من عوامل أستقامة الدولة على الصراط المستقيم فيرى أن فساد أخلاق الأمراء ناتج عن عدم قيام العلماء بدورهم الذى عهد إليهم الإسلام القيام به فالإسلام عهد إلى العلماء بتقويم أود الأمراء" وكان قديما فى الدول الإسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر، يسيطرون على الأمة، ويسددون خطوات الملك، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ..." [٤] .

وما كان الخلائف والملوك ليرهبوا أولئك العلماء إلا لما كان عليه العلماء من أخلاق فاضلة، وتحليهم بالورع والزهد والتخلى عن حظوظ الدنيا فلا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار ام رضى، "إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف أتخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدين مصيدة الدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم بأسم الدين خرق حدود الدين هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء، وعلو مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظم، ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتمر، وكل هذا أثمه فى رقاب هؤلاء العلماء " [٥] .

والأمير لايعفى المسلمين من مسئولية التخلف فيستطرد فى بحثه عن حقيقة الأسباب التى عملت على تخلف المسلمين وتأخرهم إلى قضايا الاعتقاد، فيرى أن من أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتكار الموت... فقد انضم إلى الجبن والهلع الذين أصابا المسلمين ، اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم فئات قد وقر فى أنفسهم أن الأفرنج هم الأعلون على كل حال وأنه لاسبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث" .

---

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ٧٥ ، ٧٦

وفى ختـام كتابـه خلص الأمير شكيب إلـى دعـوة المسلمين لنـذ التشـاؤم والإسـتخذاء وإنقطاع الآمال، وأن يأخذوا بأسباب النهوض والرقى والتقدم التي أخذ بها غيرهم .

وفى معرض رد الأمير على أعذار المسلمين وحججهم يناقش عقيدة" القضاء والقدر" ـ كما سيأتى موقفه منها بالتفصيل ـ فيبطل زعم الأفرنج الذين يقولون أن الإسلام جبرى لايأمر بالعمل فيؤكد ويثبت أن الإسلام هو دين العمل لادين الكسل ولاهـو دين الأتكـار علـى القدر المجهول للبشر [١] . فمن أسباب تقهقر المسلمين فـى العصـور المتـأخرة فقدانهم كـل ثقة بأنفسهم رغما عن مقدرتهم على العمل، واستشهد الأمير شكيب على هذه القدرة علـى العمل بمشروعى انشاء خط الحجاز الحديدى ونبوغ طلعت حرب باشا فى تشييد بنك مصر والأخـذ بمصانعه ومعامله الناجحة. كما استشهد بالأصلاحات التى تحققت فـى البـلاد المقدسـة علـى عهد الملك عبد العزيز آل سعود فى وقت قصير ماأوجدها إلا همـة عاليـة وعزمـة صادقـة وإيمان بالله وثقة بالنفس [٢] . والأمير شكيب أرسـلان يؤمـن بـأن العلـم كفيـل ببعث الأمـة، العلم القائم على ركنين : العلم الطبيعى وعلم الدين فيقول: " فلابد لنا من تربية علمية سـائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن النـاس عندنـا فـى الشرق أن نهضـة مـن نهضـات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ " [٣] .

ومحصلة نظرية الأمير فى نهضة الأمة الإسلامية أن الأمة لايتم لها النهـوض والغلبـة إلا بالتضحية أو الجهاد بالمال والنفس وهذا هو العلم الأعلـى الـذى يهتـف بـالعلوم كلهـا فـإذا تعلمت هذا العلم وعملت بـه دانت لهـا سـائر العلـوم والمعـارف [٤] ، وإن المضطلعيـن بالإصلاح غير محتاجين إلى أن يكونوا مـن كبـار العلمـاء فـي العلـوم والفنـون بـل يكفـى إذا أوتوا العقل السليم والإرادة النافذة، والتوجه نحو الأعمال لا الأكتفاء بالتمنى والآمال [٥] .

---

[١] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١١٠ .

[٢] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٥٦

[٣] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٣٩

[٤] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٦٣ ، ١٦٤

[٥] شكيب أرسلان ، لماذا تأخر المسلمون ؟ مرجع سابق ص ١٦٣ ، ١٦٤

ويرى الشيخ أحمد الشراباصى أن الأمير شكيب أرسلان كان مسبوقاً بالحديث عن انحطاط العالم الإسلامى فى عصره، فقد سبقه عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه : " **أم القرى** " الصادر فى مصر سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م حيث يتكلم المؤلف فى كتابه هذا عن العوامل التى أدت إلى انحطاط العالم الإسلامى [١] .

وينتقد الشيخ جرم الرسالة الصغيرة،، والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم، وصياغتها بالاسلوب الصحافى والخطابى العاجل، كما يقول عن الرسالة - وقوله حق - " أنها أشبه بخطبة طويلة النفس فيها من الإثارة والتحميس اكثر مما فيها من البحث والإقناع" [٢] .

والحق أن قيمة الرسالة الحقيقية تكمن في كونها جاءت استجابة لضرورة من ضرورات عصرها، فكانت بنت ساعتها ، ويظهر ذلك من أستقبال العالم الاسلامي لها، فقد رحب بها العلماء والعامة ولفتوا الأنظار إليها، وحضوا علي نشرها وتعميمها .يقول السيد رشيد رضا عن هذه الرسالة :"اضطربت بها بعض دول الإستعمار، وزلزلت زلزالاً شديداً حتي قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها، وهي أحق بها وأهلها، فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون من أغروها بها " [٣] . وكذلك منعت فرنسا دخول هذه الرسالة الجزائر حينئذ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها [٤] .

واقترح الأستاذ محمد تقي الدين أستاذ اللغة العربية في كلية ندوة العلماء بالهند نشرها هذا الكتاب مصححا مضبوطا مشكولا، ليستوي في مطالعته الخاصة والعامة [٥] .

فشتان بين كتاب هذا شانه، وكتاب نشر في عهد الخلافة ، زمن السلطان عبد الحميد يدعو إلى إقامة خلافة عربية من مكة المكرمة.

ومهما قيل فى الرسالة فقد أيقظت الأمة ، وحركت العزائم نحو الإصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الانحلال والضعف .

أما كون أسلوبها أسلوباً صحفياً خطابياً فالسبب أنه كتب لينشر فى مجلة المنار، وكتبه (شكيب) إجابة على سؤال قارئ .

---

[١] ، [٢] ، [٣] ، [٤] ، [٥] أحمد الشرباصي - أمير البيان شكيب أرسلان جـ ٤ ص ٥١٧ ، ٥١٩ ،، ٥٢٠

ولايقبل انتقادها بكثرة الآيات القرآنية التى أشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء إلى آياته وتبيان تحزيراته ووصاياه فى موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسيه والضروريات المنطقية لنجاح الموضوع [١] .

---

[١] مقدمة كتاب" لماذا تأخر المسلمون ؟ " ص٢٢